HAYDAR

AL-ALAM AL-MASHUR

2271
32652
.311

2271.32652.311
Haydar
al-Alan al-mashur

ISSUED TO

| DATE ISSUED | DATE DUE | DATE ISSUED | DATE DUE |
|---|---|---|---|
| | | | |
| | | | |
| | | | |
| | | | |
| | | | |
| | | | |
| | | | |
| | | | |
| | | | |

Princeton University Library
32101 072542275

# العالم المسحور

محمد حيدر

Haydar, Muḥammad

محمد حيدر

al-ʿĀlam al-mashūr

# العالم المسحور

قنوع ١ ٢

«قصص»

دار الشرق للنشر والتوزيع
دمشق

# الإهداء

الى مدينة « درعا »

ذكرى سنوات سعيدة ، وتمجيدا لشعب نبيل

م٠ح٠

(RECAP)

2271
.32652
.311

2271
.3264
.311

# المتفرج

عندما ولجت ذلك المقهى ، كنت أعلم أنها محاولة فاشلة ، وانني لا استطيع مهما بذلت من جهد ، أن أجتاز نقطة التحول ، أو أزيل خط الفوارق الابدية .

كنت أعلم ذلك .. ولكنني اردت أن أطل ولو مرة واحدة ، من برج المراقبة الذي أعيش فيه . أردت أن أخترق الجدار الـــذي ضربته حول ذاتي ، لاشارك الناس طريقهم في الحياة . وحتى أوهم نفسي بأنني أستطيع ذلك ، فقد اخترقت زحام المقهى بشراسة زائدة ، وانتقيت مائدة يجلس قربها جماعة يضحكون بصوت مرتفع ، ويدخنون بطريقة تدل على أنهم لم يعرفوا السأم في يوم من الايام .

وعندما جلست على الكرسي ، أشعلت « سيكارة » وأخذت أنفث الدخان بشكل يدل على أنني حديث العهد بالمهنة . ومر بائع صحف ، فأومأت له بحركة مضحكة ، واشتريت منه جريدة .. أخذت أتصفحها بوثوق واعتداد . ولا بد أن جيراني قد لا حظوا ذلك ، اذ أنني رأيت

أحدهم يميل الى زميله ويهمس في أذنه بصوت مسموع : « يبدو أن صاحبنا جديد على المقهى » .

وتناقل الجميع هذه الملاحظة ، فأطلقوا ضحكات ساخرة ، وأخذوا يرمقونني بصورة خفية . وشعرت بهذه المراقبة ، فاضطربت .. وأحسست أن مقاومتي تنهار ، وأن حقيقتي بدت واضحة للعيان .

ثارت ثائرتي .. فالتفت نحوهم وبودي لو أقوم فأمسك بتلابيبهم وأحطم جماجمهم ، وأصفع تلك الوجوه المستطيلة ، ليعلموا أي انسان يقبع في كيان ذلك الذي يضحكون عليه . ولكنني ألفيت عيونا مستديرة تحملق في بلاهة ، وعلى أحداقها يرتسم فضول بليد . أدركت حينئذ أنهم لن يفهموا شيئا مما سأقوله ، وأن كلامي لن ينفذ الى رؤوسهم .. تلك الصناديق العظمية الفارغة ، وانما سيترتب كل شيء في دهاليز آذانهم الطويلة .

أردت أن أفعل شيئا من هذا ، ولكنني أحجمت ! فقد تذكرت أنني متفرج في الحياة ، لا ناقة لي في الامر ولا جمل .

خرجت من المقهى ، ولكنني لم أستطع أن أكافح شعوري بالذل والمهانة . وعاودني حقدي القديم .. ذلك الحقد المريض !! فأخذت أخبط في الشوارع بحنق وقهر .

كنت أتسكع وحيدا .. ولا تعجبوا من ذلك ؛ فأنا انسان غريب عن العالم ، غريب عن كل ما فيه ! أتفرج من بعيد على الحياة ، وأسلط على الناس أضواء مختلفة تضخم حماقاتهم ، دون أن أشارك الآخرين في شيء .

كنت أريد من أعماقي أن أكون انسانا اجتماعيا الى أبعد الحدود ، انسانا يحسن رد التحيـة ويتقن الرياء والمجاملة ، ويعرف مناسـبات الزيارة ، وكيف يتكلمون مع انسان يرونه لاول مرة .

أردت ذلك ، ولكنني أعلم بأنني لا أستطيع ! فأنا وطواط يعيش في قوقعة مظلمة ، مليئة بالشوك والدموع ، ويتفرج من ثقب صغير فيها على المهزلة التي يسمونها « الحياة » .

انها صنعة حزينة ، لا انفعال فيها ولا مسئولية .. صنعة قديمـة تعود لعهد تكاد الذاكرة المتعبة لا تستقصي مداه .

ولكنني الآن ، وفي هذه اللحظة أستعيد كل شيء وأعرف الزمن الذي تكونت فيه .

* * *

كنت طفلا ، وكان هناك أطفال كثيرون . كانوا يلهون بألعاب مختلفة يقدمها لهم آباؤهم ، أما أنا فكنت محروما من كل هذا . كنت أكتفي بالنظر عن بعد ، وأرمقهم بنظرات جائعة يفيض منها الحرمان والالم . كنت ألبس ثيابا توارثتها عن اخوتي الكبار .. ثيابا كانت أمي بفقرها البالغ ، تكيفها لتلائم جميع الاخوة بالتسلسل . ولكنني ما كنت أعير هذا الامر أي اهتمام ، أو أتحسر لان أطفالا آخرين كانوا يلبسون ثيابا أفضل .

كان همي الوحيد أن أحصل على بعض اللعب كغيري من الاطفال .

كنت أريد أن أحصل على هذا الشيء الصغير الذي يسمونه « اللعبة » لأشعر أنني كائن حقيقي له شيء يخصه . وكنت أعتقد أن أبي لا يحبني ، ولكن عندما كبرت .. علمت أنـــه لم يكن يملك ثمن اللعب التي يحتاجها طفل صغير مثلي .

كنت أتفرج على لعب الآخرين .. ولكي أعوض هذا الشـــعور بالنقص ، فقـــد اخترعت لنفسي لعبـــة جديدة : كنت أجمع علب « السردين » الفارغة التي يرميها جيراننا الاغنياء ، بعد أن يأكلوا ما فيها من طعام دسم ، فأثقبها من أطرافها .. وأربط فيها خيطا طويلا ، صانعا منها سيارات !! ثم أرسم على التراب خطا للسير وأعين عليه مواقع المدن ، وأجر العلب الفارغة وأنا أصيح بلهجة طفولية .. مقلـــدا صوت بوق السيارة : « طاطوط .. طاطوط » . ولكنني كنت أشعر بخيبة هائلة عندما كانت سياراتي تصل بسرعة عجيبة الى المدن المرسومة على الارض .

كان أبي يسافر أحيانا الى القرى المجاورة ، وكان يغيب فيهـــا يوما ويومين ، لكن سياراتي كانت تقطع المسافة بلمح البصر !! وقد أثار هذا الامر ، تساؤلا ملحا في ذهني الصغـير ! فاكتشفت بصورة غامضة ، أن هناك تباينا في الزمن .. أدركت حينئذ أن اللعبة كاذبة ، وأنني لا أشارك فعلا في الحياة .

كنت أتمنى أن أمارس اللعبة من الداخل ، وأن أجلس في سيارة حقيقية ، وأدير مقودا حقيقيا لا زيف فيه . لكن السيارات التي صنعتها كانت صغيرة علي ! وقد صدمني هذا الشعر وأعادني للمكان الذي

بدأت منه • عدت أتفرج على لعب الآخرين ، وأنظر الى السيارات الحقيقية بحسرة وألم • وعندما كانت تمر بي احداها ، كنت أقف صامتا في عناد عجيب ! دون أن أحيد عنها حتى ولو دهست •

وقد حاولت أن أخفي شعوري بالحسرة ، وأبتسم •• ولكنني لم أفلح أبدا في تصنع الابتسام • وقد لازمتني هذه العادة ، فلم أبتسم على الاطلاق !

انكم تعرفون الانسان بأنه « حيوان ضاحك » •• ولكن اسمحوا لي أن أقول لكم بأنني أمثل نقضا صريحا لحكمتكم الباهتة ؛ فروحي لم تعرف الضحك ، ولن تعرفه في يوم •

وفي صغري علمت أن هناك لعبة كبرى يسمونها « السينما » • ولكنني لم أمارس هذه اللعبة آنذاك • وعندما كبرت قليلا ••• جمعت القروش اليسيرة التي كنت آخذها من أبي وأمي ، وأحيانا من خالي •• جمعتها قرشا فوق قرش ، حتى تيسرت لي اجرة الدخول ، فاشتريت بطاقة ودخلت •••

دخلت خاشعا ، كمن يطأ عتبة هيكل مقدس ، وانزويت في ركن معتم •• هربا من العالم وابتغاء الوحدة المطلقة !!

كان يزعجني الضوء ، وأحس كلما مررت بين الصفوف ، أن آلاف العيون تخترق ظهري ، وأن الجدار الذي بنيته حول ذاتي قد انهار • كنت أخاف الجلوس في المقاعد الامامية ، أخاف أن أصبح بدوري هدفا لنظرات متفرج آخر • وكانت ترعبني وتوقف حريتي

هذه الفكرة ، فأحس بقلق مجنون يمزق لحمي كالمشارط • وعندما تطفأ الانوار وتلفني الظلمة •• كنت أشعر بالسلام والطمأنينة ، وينبثق في ذهني عالم مسحور •• شبيه بالحكايات التي سمعتها أيام الطفولة •

تفرجت على البطولة الخارقة ، والحب الجارف ، وشهدت معارك الموت السريع •• دون أن أشارك في مسئولية عمل من هذه الاعمال • وعندما خرجت •• شعرت أنها لعبتي الحقيقية ، اللعبة الوحيدة التي أحقق فيها رغبة التفرج •

كنت دائما أختار المقعد الاخير ؛ لارى مشاهد الفلم •• والمتفرجين بوقت واحد • ورغم أنني كبرت ، فقد ظل شعوري بالانعزال قويا ، فبقيت أنظر الى الناس من فوق ، وأتفرج من بعيد على المهازل !!

وكنت أحلم بعد خروجي من الفلم ، وأوهم نفسي بأنه من الممكن أن أصبح بطلا ، وأقوم بأعمال خارقة في المستقبل الطويل • ولكن أشياء تافهة ، كصراخ بائع متجول ، أو عويل سيارة مسرعة ، كانت تنتزعني من عالمي الوهمي وترغمني على الاختفاء والهرب ، فأعود الى مهنتي الاصلية •• مهنة التفرج •

وعندما كبرت أكثر •• أردت أن أشارك فعليا في الحياة • أردت أن أشعر بأنني كائن حقيقي وليس مجرد انسان يتفرج !! فشربت بضع كؤوس من الخمر ، ودخنت بضع لفافات من التبغ ، ولكن كل هذا لم يستطع أن يدخلني فعلا في صميم المشاركة الحقيقية •

ثم قمت بمغامرات هزيلة مع بعض النساء الرخيصات .. ولكنني عدت خائبا وقد امتلأت نفسي بالغثيان . عدت الى قوقعتي المظلمة ، وأنا أرقب الناس وأشحذ عقلي ، عبثا ، لأفهم شيئا من تصرفات هؤلاء البشر المساكين .

حاولت أن أفهم معنى كل شيء أراه . لكنني لم أفهم شيئا من ذلك العالم المجنون :

لم أفهم سر مشية أستاذنا المتبخترة ، ولماذا يعبس في وجوهنا خلال الدرس . لم أفهم لماذا نكسوا العلم في دمشق ، عندما مات رئيس جمهورية تشيكوسلوفاكيا ، مات بعيدا .. هناك في براغ . كما أنني لم أستطع أن أكتشف سر نظرات الزوج ، الخجلة ، الحاقدة على المارة ، وهم ينظرون الى زوجته .. بينما هو يتأبط ذراعها بتكلف وابتسام بليد . لم أفهم أيضا لماذا يحاول وضعها دائما على مقعد متطرف في السينما .

لم أستطع أن أستوعب معنى ذلك النظام المعقد ، الذي يسمونه « النظام الاقتصادي » ، ولماذا يحصرون التعامل بين الناس بأوراق مطبوعة مختلفة الالوان والاشكال .. وكيف أنك تستطيع أن تحقق بها كل شيء .

ولكن الذي كان يحيرني أكثر من غيره ، كيف أن هذه الاوراق ، كانت تتركز في النهاية ، بطريقة سحرية ، في أيدي معينة .

لم أدرك سبب اصرار الادباء على الكتابة ، ولماذا يتعلق بهم ذلك الجمهور . ثم ذلك الطالب الرقيع ، لماذا يا ترى يجوس كل يوم

حديقة الجامعة ، ويصفر .. وتتسارع حركة السلسلة التي يلفها حول اصبعه ، كلما مرت فتاة أمامه ؟

تفرجت كثيرا ، ولكنني لم أجد تعليلا لاي أمر من الامور !!

كان السأم يقتلني والفراغ يحيط بي كخضم هائل . وكنت أحس برغبة ملحة لأن أرمي كياني في تيار البشر الزاخر ... لكنني لم أجرؤ أبدا على هذا الفعل . كان قلبي كالعود اليابس ، وكنت أفتش عن الشرارة التي تحرقه . كنت جائعا ، يائسا ، أبحث عن مصباح ينير لي وحدتي .. وكاني روحي حزينة حتى الموت .

كنت أعلم أنني محتاج لشيء !! وكان الحب هو حاجتي الحقيقية لأدخل في عالم الاحياء . ولكن أنى لي بالفتاة التي تدخلني الى أعماق التجربة ، وتنتزع مني غريزة التفرج !

كنت أفتش عنها بحرمان يائس ، وأحلم بها طوال الليل والنهار . ثم فجأة رأيتها .. كانت كالوردة بين الاشواك ، وكالتفاح بين شجر البرية . كانت لقلبي أبرد من الندى وأحلى من الشهد ، فأحببتها بكل قوى الروح ، ومنيت نفسي بأن فجر الخلاص قد لاح .

بقيت زمنا طويلا أتفرج عليها وأرقبها من بعد . كنت أعلم طريقها الذي تمر فيه ، وكنت أنتظرها هناك .. في نقطة تقاطع الطرق . وعندما تمر .. كانت ترمقني بنظرات غامضة ، ومن عينيها يطل ندى حنان صامت . وقد حاولت مرارا أن أتبعها ، لكنني كنت أظل في مكاني قانعا بالتفرج .

« سأكلمها غدا .. سأكلمها غدا »

كنت أقول ذلك دائما • وعندما مرت بي •• لم أكلمها !! فقد سرت في كياني رعشة عنيفة ، وأحسست ساقي ترتجفان !

لقد نظرت الي • وخيل لي أنها تقول : « لو كانت ثيابك أنيقة لاحببتك يا صديقي » وعندما ابتعدت قليلا •• التفتت نحوي ، وهي تحاول أن تجعل التفاتتها طبيعية ، ولكن قلبي يقسم أنها التفتت لتراني •

رباه ما أغباني ! لماذا لا أكلمها ؟ غدا ••• غدا سأفعل •

وفي اليوم التالي حلقت ذقني ، وطويت ملابسي تحت الوسادة التي أنام عليها لتبدو أكثر أناقة •• وشددت ربطة العنق حتى كاد يطفر الدم من وجهي ، وانتظرتها في طريقها المعهود •

ورأيتها تقترب مني •••

بهدوئي في الموت ، شبابك الريان يا أخت • « ويلي •• انها تنظر الي ! » بأهلي عيناك الحلوتان ولحظك الفاتر •

وحاولت أن أتكلم ، أن أقول أي شيء • ولكنني لم أفعل ! ومضت في طريقها وئيدة الخطى وعيناها تنطقان بالخيبة •

بقيت مكاني وصوت خطاها يدوي في أذني كالطبول • بقيت مكاني أشيع جنازة القلب ، قانعا بمهنتي الاصيلة ، الابدية البقاء •• مهنة التفرج •

* * *

ها أنذا الآن هائم على وجهي ، أتسكع في الشوارع دون هدف • ويداي دافئتان لانهما في جيبي •• والهواء البارد يداعب وجهي بنعومة منعشة •

لقد سمعت البارحة أنها ستزف الليلة الى دب ثري ، وأنها تكرهه .. وقد حاولت الانتحار مرتين .

ما أغباني ! لو انني تخليت قليلا عن طباعي لفزت بها .

ألا يعلم زوجها ، ذلك الدب الغبي .. أنني أكرهه وألعنه الآن دون سبب .

كان المطر يتساقط رذاذا ناعما ، وما زلت أتسكع في الشوارع .. أتفرج على واجهات المخازن ، وأقرأ اللوحات المعلقة على الجدران .

كنت أتسكع في الشوارع .. ولكن عقلي كان يحوم كالفراشة حول الشموع المضاءة في مخدع الزوجية .

انني أعلم بأنني لا أستطيع أن أمثل دور الزوج باتقان ، ولن أستطيع تمثيله على الاطلاق !! ولكنني أستطيع أن أحب باخلاص أكثر من اي انسان على الارض .

لكنها لا تعلم .. لا تعلم ..

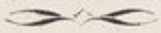

# العالم المسحور

## -١-

كنت سأحتفظ به في الظلمة .. في أعماق ذاتي ، كبقية الاسرار المحبوسة داخل الجدران . هناك .. في مقبر الاسرار ، حيث لا تناله الايدي ولا تقتحمه العيون . وقد حالفتها على ذلك ، وأقسمت بحبنا ، بعينيها الحزينتين .. بالدموع التي سفحناها ، بالدم . أقسمت أن يظل دفينا الى الابد ، وألا يطلع عليه أي انسان سواي .

لقد كنت أحب لو أفي بالعهد ، وأبقيه مجهولا فلا أمزق ذلك الجدار من الصمت . لكنها الدموع .. وصوتك الراعش الابله ، والحاحك المجنون ، واخوتها الصغار ، والأب الذي يتألم في صمت .. تعذبني بقسوة وتلاحقني اينما سرت .

ولكن ماذا تريدون مني ؟ ( وأنا لا أمنعها من الكلام ) ألا تذكرين قصة الرجل الذي حركه الطمع ، فذبح الدجاجة التي كانت تبيض له كل

يوم بيضة من ذهب ؟ فلما لم يجد شيئا عاد يعض اصابعه من الندم • وأنا أخاف أن يتكرر الامر ، وأسبب لكما الآلام لو تكلمت • ولكن ما دمت تريدين ذلك ، فسوف أتكلم •• وتلك خطيئتك يا جارتي العزيزة •

## ٢

لقد خرجت من البيت ، وأصبحت « غرفتي » الآن فارغة ••

( أترى قلباكما أصبحا فارغين ؟ أيمكن لنا ان ننسى •• تنسى خمسة اشهر قضيناها بالدموع والالم ، والحب والخوف ؟ )

خرجت الآن من البيت ، وسوف يأتيكم طالب آخر ، يطرق الباب كما فعلت ••• وفي وجهه تساؤل أبله عن غرفة فارغة • وتفتحين له الباب ، ويتكرر المشهد الذي مثلتموه مرات ومرات : يتحلق الاولاد حوله ، وترمقه الفتاة من بعد ، بينما تبسمين له يا جارتي العزيزة •

ويحتل « دوري » •• ثم يرتفع الستار ، وتبدأ المسرحية كما ابتدأنا في يوم من الايام •

• • •

جئتكم مجهولا أول الامر •• طالبا بليدا لا يحسن سوى الفراغ والسكر • وكنت أبحث عن غرفة فارغة • ( والفراغ في أعماقي كالرصاص ) وفتحت لي الباب ، وبدأت الحديث عن الغرفة ••• عن مغريات قد اكتشفتها فيما بعد !! والتف حولي الاولاد ، وفي أعينهم ذل تعودوه من قبل • والفتاة في زاوية من الغرفة ، تنظر في صمت الي •

ودفعت لك الاجرة ، ورأيت عينيك تلمعان ( وطالما لمعت من قبل ) .. وحل بينكم عابر جديد لا تعرفون أي شيء عنه . وهكذا وجدت نفسي في عالم غريب ، كان عليكم أن تبذلوا ما بوسعكم لتجعلوه مألوفا لدي .

◆ ◆ ◆

بدأت عهدي بينكم بالصمت . ( وتلك عادة لازمتني من الصغر ) لكن أيجب أن أنبش الاسرار ، وأحدثك عن نفسي .. عن أمور فعلت المستحيل لابقيها بعيدا عن العيون ؟ لكنها ( واعذريني اذا تكلمت ) لا تنفصل مطلقا عن المأساة .

◆ ◆ ◆

أذكر أول يوم قدمت ، وجئتكم مساء أطفح بالخمر .. ويداي مثقلتان بالحقيبة ... بحقيبة تكدس فيها كل رصيدي من البؤس والتشرد . وكنتم في « غرفتي » ذلك الوقت : البنت على الاريكة ، وآخران صغيران كالقطط ... بينما تنسجين خيوطا من الصوف .

ورميت الحقيبة ، وانطرحت على السرير بلا تحية . وسمعت همسا خفيفا ... وأطفأتم بعد ذلك النور .

ومر أسبوع علينا ، أو أقل منه ، وأنا في عزلتي كأبي الهول . ( ألم أقل لك ان الصمت لازمني من الصغر ؟ )

ورأيتكم تلاحقونني بأعينكم كيفما تنقلت ، وهي تدور في محاجرها من الدهشة !! كأنني حيوان جديد على الارض . ثم حل الاهتمام

والشفقة ، مكان الحيرة والدهشة • وسمعتكم ( لا تكري ) تتهامسون بذلك •

كنت أعلم أنكم ( وجارات كثيرات ) تتحدثون عني ، وأن اسمي ( تلوكه الافواه ) أسود كالليل • كنتم تتحدثون عن الفظاظة ، والصعلكة •• وأن في طبيعتي شيئا من الجنون • وفعلا كنت على شيء من الجنون ، وكان جنوني من نوع لم يدخل بعد في نطاق العلم ، أو حساب الاطباء والمتفقهين !••

كنت ( وما تبدلت ) أفعل كل ما يجعلني في نظر الآخرين موضع الكراهية ، والدهشة والحقد • وتلك هي الاشياء التي عمقت وجودي أكثر من الحب •• ووضعتني على صعيد واحد مع الكون •

لقد تمنيت ( وفعلتموه فيما بعد ) لو كرهتموني وحقدتم علي • ولكن •• ولكنني غدوت « موضوعا » للشفقة والعطف •

كنتم تشفقون على السكر والتشرد ، والفراغ والصمت ، وتلك العزلة •• تفصلني بوحشتها الرهيبة عن العالم •

وبدافع الشفقة والفضول ( والشفقة أولى مراتب الحب ) تسألين عن حياتي : عن الفوضى والكسل ، ولماذا لا أبقى ( كما أخبروك بذلك ) أكثر من شهر في اي بيت !!

لماذا الفضول ؟ ( ولولاه لما اختلطنا يا جارتي العزيزة ، بل ظللت في العتمة ، وظل حبنا ـ لا تجفلي ـ كامنا في القلب )

لماذا يا غبية ؟

هل سألتك يوما عن زوجك المخمور ، والاخوة الصغار ، والبنت .. ضاحكة لكل زائر ؟

لقد تخيرت أصعب الطرق ، وأردت النفوذ الى أعمق الاسرار . أردت أن أحدثك عن الفوضى ، والتنقل والكسل ، ( جدراني الوهمية ) فأهدم ـ بكل بساطة ـ ما بنيته خلال أعوام كثيرة ، وتعبت فيه . وكان علي لو تحدثت ، أن أعود الى طفولتي ( ويومها تشربت روحي الصمت ) .. فأنبش الاسرار .

لا .. لن أحدثك عن هذه الأسرار ، عن سر الفراغ والعزلة ، عن الكراهية ، والحقد .. يتخثر في أعماقي كالحقد . وانما سأحدثك بطريقة تفهمين بها كل شيء . سأحدثك عن التقزز ، والقيء والرعب ، كلما رأيتك تبتسمين في وجهي ( كالجثث الميتة ) وتضحكين .

ألي كنت تبسمين ؟ لي أنا بالذات ؟ ( جارك العزيز !! ) أم كنت تبسمين لشيء آخر .. للنقود التي دفعتها ، لأضيف شهرا الى الرصيد ؟

لا .. لاتكذبي يا جارتي العزيزة ؛ فقد رأيت كثيرات ، وكن جميعا يبتسمن في وجهي .. ولكني كنت أعلم ( وأنا لا أخدع بسهولة ) أنني أدفع .. أدفع !!

للضحكة ثمن ، وللايماءة ثمن .. واللمسة الناعمة لها ثمن أغلى من الضحك والايماء . وأما أن يرتفع الثوب ، ( وكلهن يؤجرن أجسادهن ) فهذا أمر يدخل في نطاق العرض والطلب !

أتدركين معنى أن « يدفع » الانسان ، وأن يعلم أن كل شيء يباع

في سوق العبيد .. حتى العواطف ؟ لقد كنت أعرف ( ولا أخدع نفسي ) أن القيمة لما « أدفع » . أما أنا .. أنا كانسان معين ، فلم يكن لي أي وزن على الاطلاق .

وكان أكثر ما أشعر بالغثيان منه ، عندما تطلين في الصبح علي ، لتبصقي من وجهك المهزول .. من وجهك المسلول ، ( كرائحة اللحم النتن ) تحية بلهاء لا معنى لها ولا رصيد .

ولكن أهذا فقط ما يثير في الرعب والقيء ؟ لا .. فهناك ما هو أكثر من الرعب والقيء :

البيت الذي سكنته ، والغرفة التي حللت فيها ، والسرير الذي ضمني ليالي كثيرة . هذا السرير اللعين ، كم طالبا يا ترى رقدوا عليه ؟

سكنت غرفة ، واثنتين ، وسبع غرف .. وأكثر من ذلك ! وجاء دورك الآن يا جارتي العزيزة

ولكن !..

ولكنني كنت دوما أراهم بجانبي ، أولئك الذين جاءوك قبلي . مئات الجماجم تزحم رأسي على الوسادة ، وتدب فوقه كالعقارب . والأغطية .. كنت أحسها مليئة بالشوك ، وكانت تخزني كالابر .

كنت أخاف أي شيء من الغرفة :

الخوان والكرسي ، ومقبض البـاب ( تراكمت فوقه الايـدي ) والأريكة وصحن السجائر !! كانت كالمحرمات في نظري ، كما لو أنها ( لا ترفعي الحاجبين دهشة ) تمائم القبائل البدائية . وما استعملتها يوما بلخلاص وحرية تامة .

لم أرها على حقيقتها .. مجرد أشياء جامدة . بل كانت ( واحساسي يقلب الاشياء ) حية نابضة كبقية الاحياء ، وما لمستها يوما الا شعرت بها تحت أصابعي كالضفادع !!

( وترعبني الضفادع ، وهذا من الأسرار )

وكان أكثر ما يخيفني الليل ! وفي الليل يغفو العقل وينطلق الخيال يا جارتي العزيزة .. فيتبخر العالم الذي نعيش فيه ، ويجسد لنا الوهم عوالم لانهائية ، فتنبت الأشباح من الظلمة .. كالعفاريت أيام الطفولة .

وعندما كنت أستلقي على السرير في العتمة .. في الموضع الذي كان يشغله جارك السابق ، وعيناي مصلوبتان على السقف ، في النقطة التي تجمع فيها بصره من قبل ، كان السقف يتحول ( كأننا في عالم مسحور ) الى شاشة للعرض ... فأرى عينيه تحدقان من نفس النقطة .. تحدقان في وجهي ( كعيون الاموات المفتوحة ) وتبسم لي في سكينة قاتلة ، مطفأة البريق .

كانتا تنظران الي .. وترويان قصص الماضي العريق !.. كان يلفها بذراعيه ، فترتمي على صدره ، ويداها تعبثان بشعره الأسود .. وتضحك له بخلاعة ، ويحفر ثغرها المجنون ... **ألف قبلة** على خديه .

وعبثا حاولت أن أدير لها وجهي ، أو أغمض العينين . كانت عيناه تسمرانني كالمغناطيس ، وتحيلانني الى تمثال من حجر . وهذا ( وأمامي الآن زجاجة من الخمر ) ما كان يدفعني الى السكر ، ولولاه جننت !!

كنت أقتل الوهم بالخمر ، فيتبلد الاحساس ويموت الخيال والفكر . وبالجرأة التي كانت تشيعها الخمر ، كنت أتحدى ( ببطولة

هوائية ) كل شيء في عالمي المسحور .. في « غرفتي » المتواضعة :

أتحدى عينيه .. عينيه الجامدتين ، تلمعان كالزجاج الأسود ! والجماجم المقطوعة .. تكالبت على رأسي في تزاحم مسعور ، شبيهة بالدود الذي يزحف على الجيف !

أتحدى الجماجم ، وعينيه ، وجدران الغرفة ، وسقفها .. كتابوت مظلم .

عرفت الآن لماذا أسكر ، وآتي مع الفجر آخر الليل ؟

◆ ◆ ◆

كنت أنسى هذه الاشياء .. أنساها اذا سكرت . ولكن ما لم أستطع نسيانه على الاطلاق ( وهذا ليس من الأسرار ) ذلك النظام الثابت ، لا يتبدل ، توضعت به الاشياء :

السبت والجمعة .. وخمسة أيام أخر ، ورفاقي ( وأنا أبدل الاصدقاء بسرعة ) أراهم كل يوم . والبيت الذي سكنته ، وأن أضع المفتاح في القفل .. كله لا يتبدل ! والصور .. لم تغير مكانها على الجدران . والأرائك الفارغة كالموميات المرصوفة .. تحملق في بلاهة كأعين عمياء !!

ما معنى هذه الرتابة ؟ وهذا الثبات ؟ ما معنى أن تسير الحياة بهذه الآلية الرهيبة الى الابد ؟

كنت أخرج في الصباح وأعود مع الليل .. أعود فاذا كل شيء مكانه . وأزحزح الطاولة ، وأبدل موضع السرير .. وأغمض عيني وأقبض في تشنج على الكرسي وأخبطها بعنف على الارض !! وافتح عيني ...

ولكن !!.. ولكنها لا تزال رغم ارادتي موجودة ، وتفرض نفسها علي بشكل لا يقاوم .

وكنت أيضا .. ( لا تسأمي فهذا آخر سؤال أجيب عليه ) أكره « الآخرين » ويملؤني بالرعب . كنت أخاف ، لو أطلت الاقامة ، أن أختلط بهم ؟ فتشف الحواجز .. والجدران تنهار . كنت أقرف من الصلات الانسانية المتبادلة ، من هذه التوافه ، وما تواضع الجميع عليه :

الصداقة والمجاملة ، والعطف والشفقة ، وأن يحب المرء جاره ويكره الآخرين . كنت ( وهـذا لازمني مـن الصغر ) أحب نفسي وأكره العالم .

كنت أريد حادثا فريدا يقوض أعماقي ويتركني كالرماد . أريده لأخرج من نطاق التوافه ، وأعطي « معنى » لهذا الوجود الذي أستمر فيه . ولكن !!.. ولكنني كنت أعيش في سوق العبيد .

عرفت الآن سر التنقل ، وعزلتي ، وأواخر الليل .. ولمـاذا لا أتجاوز الشهر في أي بيت ؟

## ٣

أتشعرين بالملل ، وتقولين ان الحديث قد طال ؟ لقد هدمت حواجز الصمت ، ولن أتوقف حتى ينضب الاناء . لقد أرغمتني على الكلام وألححت علي ، وتلك خطيئتك يا جارتي العزيزة .

انك ( وأرى ذلك بوضوح على الوجه ) تتساءلين بملل عن جدوى هذه الأحاديث .. وأية صلة لها بالامر ؟

ولكن ...

مهلا ؟ لو انتظر القاتل لمات القتيل • فقد وصلنا « عقدة » الرواية ، وهذه الجزئيات الصغيرة ، هي التي كونت المأساة !

## ٤

هنا الصعوبة • في البداية •

في الثالث من آذار سكنت • أستطيع أن أحدد هذا التاريخ • ولكن أيمكن لي أن أقول متى •• ولماذا •• وكيف أحببت ؟

أللحب بداية ؟ أيحده تاريخ أو يخضع للعقل ؟ ( والحب •• كالحقد والكراهية ، يلقي ظله على المرء ، فاذا كل شيء قد تبدل في نظره ، كأنه في عالم مسحور )

أيمكنني أن أحدد لحبنا بداية ؟ لا ••• واعذريني ( وقد بدأت أشعر بالسكر ) اذا اختلط الامر وضاعت التفاصيل علي •

• • •

أذكر أن أعيننا تلاقت أول المأساة في صمت • كشخصين غريبين تلاقيا في تصالب الطرق • وهزتني رعشة حينذاك ! وقلت انها عابرة •• ولم أعطها أهمية ذلك الحين •

ثم يوم •• وأيام •• ( والزمن سريع المرور ) وتبادلنا خلال ذلك نظرات كثيرة ، شعرت بها تزلزل كياني وتغوص الى الأغوار • تبادلناها خفية عن الأعين •• وكانت تترسب في أعماقي نظرة بعد نظرة ، وتضيء أماكن لم يدخلها نور على الاطلاق •

آمنت حينئذ بالمستحيل ، وبالاعصار يحطم أسطورة العزلة ، والعتمة والصمت •• ويقلع جذورها الى الأبد •

ولكن !••

ولكنني ... ( والحقد والكراهية ، وأربع سنوات تغلغلت في الدم) مضيت دون أن أبني أحلاما عليها ، وأنا أحسبها ( وكلهن كذلك ) نظرات « مأجورة » في سوق العبيد .

ظللت مكاني في الظلمة .. وراء حجب الصمت الكثيفة ، وستار من التمرد والسكر .. ظللت تائها حيران .. والقلق ينمو في صدري ويأكله الليل والنهار .

◆ ◆ ◆

النظرة الخفية ، واستعارة الكتب ، وسؤالها عن الجارات السابقات ، وأن تلبس ما أريد ! كلها جرت سرا يا جارتي العزيزة .

ولكن أهذا ( وقبله اكثيرات ) ما يسمونه الحب ؟

كنت أريد ما هو أعمق من النظرة ؛ لأفتح النوافذ التي أغلقتها منذ أيام بعيدة . أريدها ( ويتمطى الحقد والأنانية ) أن تركع .. وترمي .. في لهفة الهيمان ، حبها على قدمي .

وانتظرت « المستحيل » ..

وأتى يوم تجرأت فيه وابتسمت . ورأيتها تبتسم ... ومن عينيها يطل ندى حنان صامت . وغادرت يومها البيت ، وأنا أود لو أحتضن العالم .. وكان النور يغمر كل شيء في سلام أبدي .

وفي المساء رجعت .. وكانت وحدها حينذاك .

كنت أحسب أنني سأقاوم ، وأن العزلة والصعلكة ، وجدران الصمت ... ستبقى صامدة وتوقف الطوفان . ولكن ما أن علمنا أننا وحيدان ... حتى عرانا الاضطراب ، وطفت رغباتنا الحبيسة ، وأحرقنا اعصار من النار .

توقفنا لحظة جزعين .. وعالمنا يتلاشى رويدا من الوعي .. ثم لفنا الاعصار .

وأخيرا ..

أخيرا ؟

وقع « المستحيل » يا جارتي العزيزة .

◆ ◆ ◆

ثم يوم .. ويومان .. وعشرة أيام .. وأيام أخر !! وجارك « العزيز » يعيش في دنيا من السحر ، ويعب في لوعة الظمآن من الحب .

وهجرت الرفاق والاصدقاء ، وتبحث عني الشوارع ... عن ذلك المتشرد ، يترنح سكرا ويملؤها آخر الليل بالضجيج .

وأبي .. ( أبسط مسكين على الارض ) تراكمت رسائله في بريد الجامعة ، يسائلني في عواء وقد رابه الصمت . وتركت الدروس والكتب ، والمعهد الموقر والمعلمين الطيبين . ورسبت ( معذورا ) ذلك العام . وقال يومها الاساتذة ، والطلبة ، والآذنون وبعض الرفاق : لماذا ( ويسقط العالم ) سقطت ؟!

ومضى شهر ، وشهران .. وتوقعت أن أترك الغرفة ؛ كأربع سنوات في دمشق !! ولكنني .. ( وعينيها ... بهما توسلت الي ) أضفت شهورا للرصيد .

اضحكي .. ( ثملت الآن ) اضحكي طويلا !! فقد تبدل العالم وتغير كل شيء فيه .. حتى وجهك الميت المسلول . ونسيت ماضي ..

دفنته بين عذائرها الطويلة وثدييها العاريين . وغابت عن ذهني الطفولة ، وطريق المدرسة ، والعصا كلما تأخرت .

والفراغ والصعلكة ، والأشباح والظلمة ، والسكر والتشرد ، وأن آبي أواخر الليل . ومقبض الباب وأسواق العبيد ، والضفادع وعيناه ... كلما ( واستفاقت بعد ذلك ) غفت واستسلمت للنوم .

أتعجبين من ذلك ، ويحفر وجهك الدهشة ؟

لماذا ؟.. والحب يأتي بالاعاجيب !! لقد أحببتها أكثر من الدم ، وتحبني فوق ما أستطيع ! أتنكرين ذلك ؟

تعلمين جيدا ، ويعلم أخوها الصغير ، وأبوها الذي يجيئني دائما مثقلا بالخمر ... تعلمون جميعا أنها كانت تظل ساهرة حتى ساعة بعيدة من الليل . وعندما كنتم تسألونها السبب ، كانت تقدم لكم أعذارا كثيرة ... وأبسط هذه الاعذار ، أنها تطل على الفحص وأنها بحاجة للدراسة . وكنتم تعلمون أنها لا تقول الحقيقة ، وأنها لم تكن بحاجة الى هذا الوقت ؛ فهي تقرأ طوال النهار ، والفحص لا يزال بعيدا .. بل أبعد مما تقول .

ولكن !..

ولكنها كانت تظل ساهرة لترقب ضوئي المشعل ، أو لانتظاري اذا جئت في ساعة متأخرة من الليل .. وما أكثر ما أجيء أواخر الليل .

◆ ◆ ◆

لقد سهرت في الماضي حتى تعبت ، وغفوت بعد ذلك فقتلني النوم .

وكنت ظمآن الى الحب ، ثم أغرقني الحب والحنان .. فجرعت منه حتى بشمت !!

وأخيرا ...

تيقظ المارد واستفاقت الاشباح . فشعرن بالحنين للماضي .. للفراغ والصعلكة ، والتشرد والسكر ، وأن آتي أواخر الليل . وتذكرت طفولتي القديمة ، والمدرسة .. والعصا كلما تأخرت .

وتأملتها طويلا .. شعرها ، والجسد الساخن ، وعينيها الحزينتين ! ولكنني لم أجد ما يثير !! فعجبت من الجنون الذي وقعت فيه .

واجتويتها .. وشعرت بالسأم . ( ويدفعني الحقد والانانية ) فأضربها كل يوم .

أنا مخطيء يا أعز جارة .. يا أتفه من عرفت ؟

وخالطها الجنون .. وترمي حبها من جديد على قدمي . فأسخر منها وأمزق رسائلها الحمقاء ، وأبعثر خصلات شعرها المعتم .. تاريخ حبنا القديم ! وأذكرها بألف جار ( عزيز !! ) تقدموا علي .

وتبكي .. فأضحك !! ( أتمنعونني من الضحك ؟ ) وأخذت تهددني بالانتحار ، فتمنيت ـ ساخرا ـ لها النجاح . وفعلا أقدمت على الموت ( ورسالتها الاخيرة لا تزال لدي ) ..

وترسبت في صدرها الأقراص !

سبعة أقراص كما قيل ، واثنان وأربعة ... وانتهى حبنا يا جارتي العزيزة .

وحملتها الى مشفى الجامعة ، وأنقذها طبيب هناك • وعرفتم بعد ذلك كل شيء ! وعندها خرجت •

خرجت وأصبحت غرفتي الآن فارغة •• ( أترى قلباكما أصبحا فارغين ؟ )

## ٥

لقد هدمت لكم حواجز الصمت ، فعرفتم كل شيء • ترى ماذا ستفعلون الآن ؟ هل تلومونا على الحب ، وهل أراها يا ترى اذا مررت ؟

أم ستفتحين لي بوجه عابس عندما أطرق الباب ، قائلة بصوت مائت الذكريات منه ، وفيه من التبرم والضيق أكثر مما أطيق : « تفضل يا سيدي بالدخول » •

وأدخل •• ونبقى بعدها الساعات •• صامتين في كآبة ، أو نثرثر الى الغثيان بما لا طائل منه • بينما تتحرك عيناي في قلق الملهوف ، وفي أعماقنا شعور مشترك بما أريد •

سوف يمضي الزمان ، وننسى بعضنا في زحمة الحياة ، ويعفي النسيان على كثير من التفاصيل ، ويحتل غرفتي كثيرون • ولكن لن يتاح لواحد على الارض ، أن يحل مكاني في القلب • ومهما تقادم بنا العهد واصطنعنا الكراهية ، فسوف يظل في أعماقكم شيء يمتنع على النسيان •••

سوف تذكرون أنني مررت •

سوف ترونني في كل شيء : في «غرفتي» في السرير الذي احتواني ، والمكان الذي جلست فيه •

لقد خرجت الآن ، ولكني تركت فراغا في قلوبكم •• وسوف

يغزوكم القلق وتظلون كالضائعين ، ولن يمتليء الفـراغ أو تشعروا بالهدوء ، الا ( واسأليها يا جارتي العزيزة ) اذا أتيت •

انني أراها الآن ••• لا تزال ساهرة في الانتظار ،، تحلم بالمعجزة وتأبى أن تصدق أنني ذهبت • ولكنني ذهبت •• ذهبت ولن أعود •

• • •

لقد أغلقت النوافذ من جديد ، وبنيت كثيرا من الجدران • وعدت للظلمة ، للسكر ، للشرد •• والفراغ والصمت • ولكن شعاعا من عينيها قد تسربت الى الظلمة ، وأغلقت أعماقي عليه ، وسوف يظل فيها حبيسا الى الأبد •

سأحمله باخلاص ، وأذكر دائما ••• أذكر أنني أحببت •

• • •

لقد انتهيت •• وانتهت زجاجة الخمر • وكتبت كثيرا على الورق ، وسوف أرسلها في الصباح ، وتقرئينها يا جارتي العزيزة •

ولكن !!••

أصحيح أن هذه الصفحات ، هي الاعصار الذي أحرقني وخلفني كالرماد ؟

# لقد تأخرت

لا أملك ساعة لكي أحسب الوقت . والساعة .. من الاحلام القديمة ، التي شاخت وأدركها العفن ، وهي لا تزال في صحبتي من الطفولة .

كنت أحلم بساعة مدورة ، لها عقربان يدوران ، كالسكاكين التي مات بها أخي ثأرا من العائلة ، لجريمة قتل مارسها جدنا الاكبر . ولكن ما جريرة أخي ، وأنا نفسي لم أعرف ذلك الجد ؟ ولو طلع الآن من قبره لتبرأت منه .

لقد تزوج أبي . وكان مؤمنا بالله ، فأنجب أولادا كثيرين .. وكم تمنيت فيما بعد ، لو أنه أوقف سلسلة الحماقات !! ولكنه استمر في الغواية ، ثم أضاع عقله في احدى الليالي فأتيت .

هل أستطيع يا ترى أن أناقشه الحساب ؟ ولكن أي فائدة ؟

ها أنذا الآن .. مجرد انسان تافه ، وراء طاولة قد استعرتها منذ أيام ، وأمامي كثير من الورق ، وسيكارة أعب منها الدخان ، وقدح .. أجرع منه شايا كلما تعبت .

لا زلت سهران !.. ولكن لماذا يا ترى ذلك ؟

كتب .. وأوراق مبعثرة ، والبرامج مصلوبة أمام عيني .. وغدا سأبصق ما قرأته .

ويسألني طالب في آخر الصف ، ويكثر من التساؤل ، وأتمنى لو أمسك برأسه وأخبطه طويلا على الحائط ، لأستخرج ما فيه وأرميه طعاما للكلاب !..

هل كان جدي عبدا لجده ، وهل كان أبي عبدا لأبيه ، ومن قال له انني في خدمته ؟

لماذا اذن يسأل .. دونما حساب ؟ لمجرد أنهم دفعوني قبله الى المدرسة ، فسبقته بسنوات ؟ ألهذا يحق له أن يسأل ، ويتثاءب ، وينام عندما يريد ؟

ومع هذا علي أن أجيب وأتظاهر بالابتسام في وجهه ؛ لأن مصيري معلق بشفتيه ، وشفاه ألف طالب أبله ، ولو عبست قليلا لتوقفوا عن الدروس ، وفقدت خبزي ، وثمن الدخان .. وكأس الشاي .. وهذا الورق الذي أكتب عليه .

وتضحك طالبة بلهاء .. فآخذها باللطف واللين . وتستمر في الضحك .. فأزجرها وأعبس ، فتبكي كالصغار . وأثور وأنفجر ، ولكنني أحبس الغيظ .. وأنا أتمنى لو آخذ سوطا فأجلدها ألف جلدة كالبهائم .

لكن لماذا يا ترى أفعل ذلك .. وأظل قانعا بالعبودية ؟

• • •

لقد انتهيت من تحضير دروس الغد المقبل .. وساعة المذياع في الغرفة المجاورة تدق عشر دقات !.. ولكن أية أهمية للزمن ، ولماذا أذكر الوقت ؟

لقد مرت أعوام كثيرة من العمر ، صرفتها بالتقسيط ، بسأم وملل قاتلين .. وسوف أدفع الحساب مرة واحدة ، بالموت .. يا لضيعة العمر وبؤس الحساب !..

انني فارغ ، ولا عمل لي الآن .. وربما وجدت في الماضي ما يبرر العبودية ، والتسول الذي أمارسه بطريقة مشروعة ، بموجب « الرخصة » التي أعطوها لنا في الجامعة ، بعد خمس سنوات من الجهاد ... أعطوها لنا في حفلة التخرج ، وكانت حبيبتي هناك . وقد ابتسمت لها بمرارة وردت بمثلها حينذاك .

لقد أحببتها في أول العام ، وكانت جميلة كالشمس .. ولوحت لها بالشهادة ، وبكل رصيدي من البؤس والتشرد !.. ولكن أهلها تعجلوا الامر ، فأعطوها لآخر .. يلعب دور النساء ويتقن التهريج !!.. أعطوها بسيارة ، وأكداس من المال .

انني فارغ ، ولا عمل لي الآن .. وربما وجدت في الماضي ما يبرر العبودية والتسول .

... ... ...

أبي .. ذلك الطيب المسكين ، قذفني في احدى الليالي فأتيت . وكانت الايام طيبة فأبقت علي . وفي هذه الفترة من العمر ، غزت بلادنا أسطورة العلم ، وتكاتف المهرجون فخدعوا بها كثيرين . وكان أبي من

الساذجين الذين آمنوا بها عن بعد • وعندما وصلت الى قريتي هـذه الاسطورة واحتلت كل شيء ، أراد أبي أن يختبر الامر ، فأرسلوني الى المدرسة •• تجربة لصحة العلم !••

لقد أهملوني من الحساب ، وغدوت صفرا على الشمال •

أردت يا ترى أن أتعلم ؟ لست أعرف ذلك بالضبط ؛ فقد كنت صغيرا حينذاك ، ولا حرية لي في الامر • وعندما وعيت ، وجدتني قد اجتزت بعض المراحل ، وأني غير مسؤول !•• وامعانا في النكاية ، تركت لهم مصيري ليفعلوا ما يريدون •

لماذا تعجلني أبي في هذه الفترة ، فخلقت ؟

لو تأخر سنة ، عدة سنوات ، أكثر من ذلك •• لو أنني ما أتيت على الاطلاق ، كان يا ترى سيتغير نظام الكون ، أو تتوقف الارض عن الدوران •• أو يحس العالم أن تافها جديدا قد أضيف عليه ؟

لا شيء من هذا على الاطلاق • وسواء تخلفت أو أتيت •• فالآلة الرهيبة تستمر في دورانها الابله ، وسوف تمزقني في يوم من الايام •

ولكن •• ما الفائدة وقد أتيت !••

• • •

طفولتي •• شقية بائسة • وفيها حلمت ••

كنت أحلم بالخبز ، وجناحين طويلين ، وأن أختال في الملابس كالطاووس • وكنت أركب المكنسة ، فاذا هي كالحصان ، أطارد بـه اللصوص وأطلق النار في الهواء • وفي المساء ألوذ بأمي فتحـدثني بحكايات غريبة ، لأغفو بعد ذلك على ركبتيها كالقطط •

ومر من العمر عام .. وعامان .. وأربعة أعوام وخمسة ، وكانت ساعة الحياة تسجل الارقام !..

وكبرت قليلا ، وتحرك السهم من جديد .

ستة أعوام ، وسبعة .. وأرسلوني حينذاك الى المدرسة . وكنت أغدو اليها وفي عنقي بيت من القماش علقوه كالمخلاة .

ومضت طفولتي في عالم تحيرت منه : معلم المدرسة ، بطربوشه الأحمر .. ونظارة على عينيه ، والعصا في يمينه ، وصوته يهدر كالرعد .. فنلوذ بالمقاعد خائفين .

وجدي .. ذلك الحنون ، يقبلني كل صباح ويملأ جيوبي بالكعك ، وأصناف من الحلوى غريبة ، فأزهو أمام الصغار ، وآكلها وحدي في شماتة .. ثم ألحس في تلذذ أصابعي كالكلاب .. ومن يومها لازمني الشعور بالانانية ، وأني محور العالم ، وكل انسان يتمنى رضاي .

وأبي .. بشاربين طويلين ، يصيح بي كل صباح ويحشو دماغي بنصائح لا حصر لها ولا عد ، يبدأها بالوالدين .. والجنة والنار .. وأسطور العلم وقيمة الاخلاق والدين .

وقد نشأت كما أراد ، فأحببت والدي ولم أخرج عنهما في يوم ، وآمنت بالاخلاق والعلم والدين .. فدخلت الجامعة ولم اهرب بمن أحببت !.. وكلما هممت بالثورة والتمرد ، تذكرت طفولتي وواجبات غريبة فرضوها علي ، فأسكت وأتراجع .. وأظل قانعا بالعبودية ،

وسوف أبقى حتى النهاية ، حتى أشيخ وأكبر ، وأبلغ سن التقاعد .. ويضربوني بالرصاص !..

وأمي .. أطيب مخلوقة علي ، تأخذني كل صباح بلهفة وتسكب فوق وجنتي الدموع ، ثم تنتظرني في المساء وذراعاها ممدودتان ؛ لتأخذ فتاها المدلل وترسم ألف قبلة على خديه !

وقد نشأت كما تريد ، أذوب من الخجل والحنان ، وأبكي في أية لحظة . وقد لازمني الضعف والحنان الى أن كبرت .

.. .. ..

في طفولتي .. حلمت ..

كنت أحلم أن أصير معلما ، كمعلمي ذلك الوقت ، فأضع طربوشا ونظارة على عيني ، وأقف وراء المنبر وفي يدي عصا ضخمة ، أخبطها على الطاولة وأكسر بها الرؤوس !.. وقد عشت وتحقق الحلم .

كنت أحلم بساعة مدورة ، لها عقربان يدوران .. لأمد يدي لأول سائل عن الساعة ، أمدها بتثاقل وعظمة .. وأنظر من قفا عيني ، وأقول له بصوت فيه كثير من الكبرياء : الساعة السابعة ـ وامعانا في النكاية والعظمة .. الا دقائق !..

ومرت الايام ، ودار الزمن ، وحلمي لم يتحقق الى اليوم !!..

كنت أحلم وأنا صغير ، وأؤجل أحلامي الى أن أكبر وآخذ الشهادة الابتدائية ، فأحقق بها ما أريد . ثم غفوت قليلا .. وكنت خلال ذلك قد تعبت .

وأيقظني الرنين ، رنين ساعة الحياة .. فاذا السهم قد توقف

على رقم جديد ، واذا بي قد استدنت خمسة أعوام جديدة ، فكان الرصيد اثني عشر • وساعة المذياع في الغرفة المجاورة تدق اثنتي عشرة •• ما أغرب الصدف !••

لقد قضيت ساعتين في الكتابة • ترى ماذا أضفت لعمري في هذه الدقائق ، سوى الاحرف السوداء ؟ أتستحق هذه الاشياء التافهة ، تلك الدقائق الجديدة التي صرفتها من عمري وأضيفت الى الحساب ؟

لو أنني انتهيت في مطلع الكتابة ، ماذا كنت سأخسر ؟

الزمن ، والساعات والدقائق ، تسربت من عمري وأضيفت الى الحساب ، وسوف ينوء كاهلي بالعبء •• ويطالبني الديان العظيم ، فأدفع له الحساب مرة واحدة !•• بالموت •• يا لضيعة العمر وبؤس الحساب !!

كل الانهار تصب في البحر ، وكل الطرق تؤدي الى روما !••

•• •• ••

وعندما استفقت على الرنين ، وجدتني أخذت الشهادة الابتدائية ، ولكنني لم أحقق بها شيئا مما حلمت • كنت أحسب أنني سأبدل بها العالم !•• ولكن لا جديد ، سوى أن الرقم قد تزايد •• وأنا الذي تغيرت • وطويت أحلامي وانتظرت •• انتظرت الى أن أكبر وآخذ الكفاءة • وكبرت •• وكان السهم يتحرك خلال ذلك بسرعة ، فلم أشعر به على الاطلاق •

•• •• ••

والمراهقة •• وفيها حلمت بالدخان والخمر ، والبطولة الوهمية ، وامرأة سوداء كالليل •• في غلائل من حرير ، تلعقني كالقطط ، وتنام في خضوع كالعبيد •

وتحرك السهم .. وكانوا خلال ذلك ينسجون لي الخيوط ، ويهيئون شباكا من حديد . واذا بي قد أخذت الكفاءة ، واستدنت أربع سنوات جديدة ، فتزايد الرصيد .. وشعرت بكاهلي ينوء بالعبء . وتكررت المهزلة ؛ فقد أخذت الكفاءة ولم أحقق بها أي شيء !.. وأحصيت عمري حينذاك ، فوجدته ستة عشر ، قطعتها كالنائم اليقظان .

ومضت فترة المراهقة ، وايمان أبي لم يتحقق بعد بأسطورة العلم .

واشترينا ساعة في ذلك الوقت ، لنصلبها على الجدار . ومضى عليها زمن ، فتعطل منها السهمان ، ولكنها ظلت تدور .. وأنا أسمع منها التكتكة البلهاء ، لتسجل الزمن الابله ، زمنا فارغا .. بلا جدوى ودون حساب أو رصيد .

وتوقعت أن تتعطل ساعة الحياة ، ولكنها ظلت تدور .. لتكتب الزمن الفارغ ، كساعتنا بسهميها المعطلين . وعجبت من هذه الساعة !.. وتساءلت في دهشة عن الامر ..

ألن ينضب الزمن ، ألن تتوقف ساعة الحياة عن الدوران ؟ ولماذا تدور باستمرار ؟! وعرفت سرها فيما بعد . ما أغرب هذه الساعة !.. لقد أحكم صنعها الديان العظيم .

لقد قطعت خمس مراحل في الطفولة ، وأضفت سبعا جديدة ، وايمان أبي لم يتحقق بعد بأسطورة العلم . وشح العلف في هـذه الفرة ، فهزلت . وعندما وعيت تماما وجدتني في الجامعة وقد أحكموا علي الرباط .. أحكموه في عنقي كالحديد .

وتلقفوني هناك .. ومضت خمس سنوات مليئة بالبؤس والتشرد ، والمرارة والالم . وكانوا خلال ذلك يحشون دماغي بالعلم ، ويكدسون فيه الكتب ، مع أنني كنت قد بشمت !!

وخرجت من الجامعة ، وعندها آمن أبي بالعلم .

◆ ◆ ◆

لقد تخرجت من الجامعة ، وكوفئت على اجتهادي الطويل ، فعينوني مدرسا .. وتلك نهاية المطاف ، وخاتمة العمر كله .

كالبغل .. يشتغل طوال النهار ، حتى اذا كبر البغل وشاخ ، أحضروا بغلا جديدا وضربوا القديم بالرصاص .

نحن كالبغال ..

سوف يعتصرون قوانا ، فاذا كبرنا أحضروا مدرسا جديدا وهزوا رؤسهم في وجوهنا آسفين ، قائلين في شفقة انني كبرت ، ثم يحيلونني الى التقاعد ، ليضربونني بعد ذلك بالرصاص .

◆ ◆ ◆

لماذا يا ترى سهران ؟

انني أدفع الآن ثمن الخطيئة ، خطيئة أبي حينما تزوج .. وأضاع عقله فأتيت . خطيئته حينما غزته أسطورة العلم .

أي فائدة يا ترى من العلم ؟ ماذا أفادني أن أعلم الجهات الاربع .. وجدول الضرب وحاصل القسمة ؟ أهذا هو التقدم أو ما يسمونه العلم ؟! لقد تعلمت ، وترسبت في رأسي معان كثيرة ، عن الاخلاق

والهيجان ، والذاكرة والضمير ، ومهمتي اليوم أن أعيد كالببغاء ما اختزنته من قبل .

الثلاثاء .. وغدا أربعة دروس لدي .

◆ ◆ ◆

لقد أتى آخر الشهر وأجلوا علينا العلف . وأسأل .. وأبحث عن مخلوق أستدين منه . ولكن الرفاق يتهربون ، ويهزون رؤوسهم كالحمير آسفين .

وصاحبة البيت تسألني عن الاجرة ، وصاحب المطعم يحملق في وجهي بعينين قلقتين .. ويسائلني في صمت عن السبب !..

ويمر أسبوع .. واثنان آخران ، ونحن نعيش كالدراويش ، نقتات بالنفايات .. ونأكل الخبز والشاي .

◆ ◆ ◆

لقد آمن أبي بأسطورة العلم ، وكيف لا وقد تخرجت !.. ولكنني أدفع الآن الثمن ، وسوف أقاضيه في يوم .. وأسائله عن أمي ، وكيف تآمرا علي .

لقد فهمت ذلك ، ولكن الشيء الذي لم أفهمه ولا يزال يستعصي علي .. ذلك القانون ، وديوان المحاسبات ، وكيف أن مصيري يتحكم فيه قرار ينشرونه في جريدة رسمية !..

★ ★ ★

وأخيرا جاءنا الراتب ، بعد أشهر من الانتظار . ورأيت جيوبي تمتلىء بالمال .. ! ويغريني الراتب الضخم ، فأبعثره ذات اليمين

والشمال ، وحققت ما وهمت أنني أريد . وحسبت أن كل شيء يحققه المال ، فاشتريت الحب والخبز ، والنساء والخمر .. والدخان وجناحين طويلين !..

واختفى القلق ، ونعمت بالسلام والطمأنينة .. وظننت أن السأم قد نام الى الابد .

ثم لاحت بوادر المأساة !..

لقد اشتريت ، والمال لا يزال يتدفق علي .. ولكنني سئمت وما عدت أرغب في الشراء .

أن نحلم ونحن صغار ، وأن يتحقق الحلم عندما نكبر .. أي جدوى من كل ذلك ؟ لا شيء !! مجرد كلام . فلو تحقق كل ما حلمنا به ونشتهيه ، لظلت في أعماقنا ثغرة تمتنع على الامتلاء !.. فنحن لا نعلم ما نريد ، وتلك هي المأساة .

.. .. ..

لا أملك ساعة لكي أحسب الوقت ؛ فأنا أعيش بلا زمان . ولكنني أعلم أن الليل قد راح ، وأن الفجر يطل من الباب .

أسكن قريبا من المدرسة ، في غرفة كالتوابيت ..

جرس الزنزانة يرن ، ودون أن أشعر .. تأخرت .

سوف أذهب الى المدرسة ، ويقابلني المدير .. ويسائلني سر التأخر !! وسوف لا أتكلم ، ولن أقول له السبب ، وانما سأحني له رأسي بهيئة الذليل ، وأقول له بلهجة المذنب ، بلهجة من يستمطر الغفران :

لقد تأخرت ..

# الانسان والعالم

كان المساء جميلا ، وكنت وحيدا في غرفتي وأمامي قدح من النبيذ . وكنت قد شربت قبله عدة أقداح ، ومع ذلك لا أزال أفكر بصورة معقولة :

أعلم أنني قضيت في غرفتي عدة ساعات . وأعلم أيضا أنني أريد الخروج الى الشارع ... وأن الحياة في البيت مزعجة .

كنت أعلم هذا ، ولكنني أعلم أيضا أن « ماري » لن تدعني أمر بسهولة ؛ لانها سوف تلقي علي أسئلة كثيرة لتمنعني من الخروج . ولكنني كنت مصمما على الخروج هذا المساء ... هذا المساء بالذات !!

ونظرت الى البهو ، فوجدته مضاء . لا شك أن « ماري » تقرأ الآن . انها فتاة طيبة ومسكينة الى أبعد الحدود . فهي تحب شيئين فقط من كل عالمنا الواسع المجنون : تحبني وتحب المطالعة . وقد تعبت كثيرا لاعرف سر محبتها لي ، ولكنني لم أحصل على نتيجة . كما أنني سألتها مرارا عن حبها للمطالعة ، فلم أفز بطائل .

كنت أعجب من انزوائها زمنا طويلا في البيت !! اذ لا عمل لها سوى القراءة ، وانتظاري حتى أعود • ولم يكن في ما يغري بالانتظار • كنت « مستأجرا » عاديا •• كبقية المستأجرين • وفوق ذلك كنا نقيضين : كنت أحب الضوضاء ، والشوارع المزدحمة ، وأحب أن أتعرف على العالم ، لا من خلال الكتب كما تفعل ، بل عن طريق ممارسة الحياة • وكانت هادئة تميل الى الانطواء والعزلة والحزن • ورغم اختلافنا العميق ، كنت أحبها وأتمنى أن أدخل السرور الى قلبها الكئيب • ولكنها كانت دائما حزينة ، دون سبب معروف •

وانتظرت قليلا ••• ثم تطلعت الى الساعة : كان الوقت مبكرا ، ولا يمكن أن تنام في مثل هذا الوقت • شعرت حينئذ بالخجل والذل ، فعزمت على الخروج مهما كانت النتائج ، ولو أدى الامر الى الشجار • وعندما صرت في البهو ، وضعت كتابها جانبا وابتدرتني قائلة :

ـ الى أين ستذهب الليلة ؟

قلت : لا أعلم •

قالت : كيف ؟!

قلت : فعلا لست أدري • أود الخروج فحسب • وقد لا أذهب الى مكان • انها رغبتي القديمة في التجوال يا ماري •

قالت : هل أنت ثمل ؟

ـ قليلا •

قالت : لماذا اذن أنت كئيب ؟

ـ انك فضولية يا ماري ، وأنا أحتج على هذا التدخل بشئوني .

قالت : لا تغضب بسرعة . لا أقصد شيئا . مجرد سؤال .

ـ لا أحب أن أزعجك يا مـــاري . تعلمين ذلـك . ولكنني سأذهب ؛ انني مضطر للخروج هذه الليلة ... هذا المساء بالذات .

قالت : لماذا ؟

ـ لا أعلم !! ولكنني أحس باختناق . يجب أن أخرج .

قالت : سأغني لك ، فربما شعرت بارتياح .

وكان صوتا عذبا ، حزينا ، كأنات الجريح . لقد استمعت اليـه كثيرا فيما مضى ، وكان يشعرني بكآبة أبدية ، وبالحنين الى الموت . كنت أستسلم اليها بهدوء عندما تغني ... وأتمدد جانبها كالطفل . ولكنني كنت أود الخروج هذا المساء !

قلت : انني أختنق ، ولا أستطيع أن أسمع أي شيء .

قالت : اقترب . سأقبلك اذن ؛ يبدو أنك ستتأخر اليوم .

ـ ماذا فعلت يا ماري ؟ لم أرتكب أي ذنب .

قالت : انك مضحك . انتظر قليلا ، سوف تذهب .

ـ هل تريدين أن أجلس ؟

قالت : نعم .

ـ وبعد ؟ ما الفائدة أن نجلس معا ، وأن نتكلم عن الحب ؟ اننا نخدع أنفسنا ، ونحن نعلم ذلك .

أدركت وأنا أنظر الى وجهها ، أنها تريد أن تبكي . لقد جرحتها

في صميم عواطفها ... في نقطة الحزن . لذلك شعرت بالاسف ، وعزمت على البقاء معها هذه الليلة ، لأنني لم أسهر معها منذ أسبوع .

أشعلت سيكارة ... وأخذت أتابع خيوط الدخان في صمت ، وأنا أعود بذاكرتي لأشهر خلت ، يوم أن سكنت :

كنت أعمل في احدى المجلات آنذاك ، فأكتب في ركن منها قصصا للاطفال : كتبت عديدا من القصص عن الارنب والسلحفاة ، والجنية والخاتم المسحور ، والثعلب الذي يلبس ثوب العجوز ..

وسألتني ماري وهي تضع ذراعها علي : بماذا تفكر؟ لقد شردت .

قلت : أليس من المخجل أن لا يستطيع الانسان أن ينفض رماد سيكارته ؟

قالت بلهجة الحيرى : لماذا ؟

قلت : لقد ضاعت حرية الانسان .

ـ انني لا أفهم الصلة بين الامرين !!

قلت : البلاط نظيف ، والقانون لايسمح بنفض الرماد على الارض .

ـ أي معنى لهذا الكلام ؟

قلت : الانسان الحقيقي مات . اننا مقيدون ، ولا يوجد انسان يعيش كما يريد .

ـ ألهذا تسكر ؟ لتنسى ؟

قلت : ما الفائدة من النسيان ؟ اننا نعيش على الارض ، ولكن لامعنى فيها لاي شيء . الحياة مجموعة من الاخطاء والحماقات والأحزان . خذي الحرب ، لماذا يقتل الانسان أخاه ؟

يقولون انها الحرب : ويخرج جندي من بلاد بعيدة ، ينتزعونه من عائلته ، أو مزرعته ، أو من الطريق ، أو البيت • ثم يدربونه على صنعة الموت • وعندما يسأل ••• يقولون له انها الحرب !!

ويخرج جندي آخر ••• أيضا من بلاد بعيدة ، بعيدة جدا عن أرض أخيه • يدربونه أيضا على الموت • ويموت الاثنان •• يقتل أحدهما الآخر دون معرفة أو ثأر أو حقد • بربك ما الفائدة اذن من الحرب ؟ لقد مات الانسان الحقيقي يا ماري •

قالت : هل تؤمن اذن بالسلم ؟

قلت : لا أؤمن بشيء •

قالت : اذن ؟!

قلت : من الضروري أن أكون مع أحد الطرفين ؟ انني على الحياد •

ـ غير معقول !

قلت : خذي الدخان ـ مع من ؟ يشرب الانسان سيكارته ويتابع دخانها في الفضاء ، ثم يختفي الدخان بلا أثر ، بدون شيء • ما الفائدة من ذلك ؟ وأين يذهب الدخان ؟

قالت : يبدو أنك مصر على الذهاب !

ـ ربما •

قالت : أين ستذهب ؟

قلت : يخرج الانسان احيانا ، ثم يسافر دون تعيين ، دون أن يدري الى أين ! العالم واسع ومجنون يا ماري • واذا قدر لي أن أسافر ، فسأرحل دون أهداف ، دون غايات على الاطلاق • أريد أن أرى العالم

فحسب ، تلك هي رغبتي الابدية ، ولا يهمني بعد ذاك ما اذا انتهت بالموت ، أو بلا شيء .

قالت : لا أريد أن أسمع هذه الكلمة . انني اكره الموت .

ـ لماذا لا يحب الانسان الموت ؟ ثم لماذا تدق من أجله الاجراس ؟

قالت : لأنه مات . لهذا السبب يقرعون الاجراس .

قلت : ما صلة الاجراس بالموت ؟

قالت : العادات ، التقاليد ، القانون ...

قلت : الخوف . الخوف يا ماري .

قالت : انك مجنون . انك تتكلم بشكل مضحك . هذه نتيجة السكر ، وربما كنت تشرب المخدرات سرا ؟ من يعلم ؟ انك دائما مغلق .

قلت : لا تطفئي المذياع يا ماري . دعينا نسمع دقات الساعة .

الزمن يمر ... ألا تخافين على وجهك من هذا المارد الوحش ؟ يخيفني الزمان يا ماري ، انني أرتجف ازاءه برعب مجنون !! أتصور الموت يا ماري ، أتصوره دائما وأنا ممدد في تابوت مغلق .. متحجر كالصخر ، صامت كالموت . أحس وحشة القبر ، وثقل الاحجار ... والتراب الذي يأكل عيني .

لقد كنت جميلة يا ماري ، وكنا نتمدد على الحشائش الندية تحت أشعة الشمس . كنا بلا أحزان حينذاك ، وكنت نقية كالليل .

. . . . . .

لا تبك يا حبيبة . لا أحب لك الحزن . على كل سأذهب ، فأنا لا أريد فتح الجراح .

قالت وهي تتعلق بي : لا تتركني وحيدة ؛ فأنا لا استطيع أن أواجه العالم .

ـ أوتخافين منه يا ماري ؟

قالت : أخاف .. أخاف منه .

وكنت أود أن أقول كثيرا من الاشياء ، ولكنني سكت ؛ فقد تذكرت خوفي القديم .

قلت : لن أتركك اليوم . سأبقى هذه الليلة ، ولكنني سأسافر حتما فيما بعد .

قالت : مصر ؟

قلت : لن أتراجع .

وطنت ذبابة أمام عيني ! فشعرت بشفقة غريبة نحو هذه المخلوقة المسكينة ، أنا الذي يكره الـــذباب : كيف تعيش ؟ وهل تشعـــر بقسوة الموت ؟

قالت ماري : تعقل . ما هذا الكلام ؟

قلت : لقد سئمتك يا ماري ، ولا يمكن أن نعيش معا بعـد اليوم . فالانسان الحقيقي مات ، ولا أريد أن أموت أنا الآن .

سوف ينهكني التشرد ، ولن أجد شيئا آكله ، أو مكانا أنام فيه . سأنام في الطرق ، وأفتقد الدخان والخمر ، وسيحاربني العالم ، لكنني لن أكترث يا ماري ؛ لأنني سأعيش انسانا حقيقيا في هذا العالم ، رغم أن الانسان الحقيقي قد مات .

وعندما خرجت .. تلفت اليها قبل أن أغلق الباب :

كان وجهها يختزن الكآبة ، وفي عينيها الدموع .

# شاكراً

سيدي الطبيب :

شاء علمك الغـــزير ، يا أذكى غبي على الارض .. أن أحل ضيفا على مشفى المجانين ، لمدة يقررها ذكاؤك النادر وتبحرك العظيم في أسرار النفس .

ولا زلت تزورني كل يوم ، وعلى صفحتيك ابتسامة بلهاء ، لتأخذ مني « حقائق » جديدة تؤكد بها جهلك العبقري ، وتضيفها لقـائمة السخافات العديدة التي يزخر بها صندوقك الخشبي .. يا حضرة النطاسي الكبير .

أعرفت أي شيء أريد ؟ رأسك الفارغ ، ذلك الذي وضعوه سهوا عليـك . ولو أنصفوك لوضعوا لك أربع قوائـم وأذنين طويلتين .. لتدخل فصيلة البهائم والهوام .

لقد أعطاك تمنعي عن الكلام ، فرصة ذهبية لتشمخ بأنفك وترفع بزهو صندوقك الخشبي ، مؤكدا للمـــرة الواحـدة بعد الالف ، انني مجنون !

لقد شاء غباؤك الفذ ، ان يختار واحدا من العقلاء ليضيفه الى زمرة المجانين ، قائلا بلهجة الرثاء .. وبتعبير لا يخلو من التحذلق الرقيع ، بأنني مريض نفسي !!

انني لأضحك .. وأكب على قفاي من الضحك ، كلما تذكرت ...

أحقا تعني ما تقول ؟!

أين يا ترى هذه النفس التي أصابها العطب والفساد ؟ وهل جنابك الموقر « ورشة » لتصليح النفوس ؟

أين ؟

أهي في اليدين التي أكتب بهما الآن ؟ أو هي في مخزن الدم .. أعني ما يسمونه « القلب » ؟ أم تراها في الرأس .. في الاغشية الرمادية والملايين من التلافيف ! أعني ما وضعوا عليه بطاقة عنوانها « الدماغ » ؟

أهي في شيء من هؤلاء ؟ في الجسد كله .. في أي مكان منه ؟!

أو هي شيء خفي .. لا يراه الا من أوتي نعمة البلادة والعماء ! مثل حضرتك المصونة ، يا فريد العصر ويا خريدة الدهر ؟

أجبني أيها العالم العلامة ، والجهبذ الفهامة .. فقد بحثت حتى عييت !! فكيف اكتشفت ـ يمين الله عليك ـ بذكائك الوقاد ، ذلك السر المبهم .. ما عجزت أنا عنه ؟

أقصد : النفس .

انني لأضحك .. وأستلقي على وجهي من الضحك ، كلما تذكرت ما تسألني عنه !

* * *

مجنون ..!!

ربما لم أكن مجنونا أول الأمر . ولكن هذه الفكرة ، ونظراتك المريبة ، وضحكات الناس علي .. تكاد ترميني بالجنون . لقد نمت في رأسي فكرة الجنون ، واستطالت بطريقة خفية ناعمة ، حتى سدت منافذ العقل ! ثم عششت .. وفرخت .. وباضت في كل خلية منه ، فصرت من أشياعها المؤمنين والمتحمسين لاثبات صحتها لو لزم الامر !!

مجنون ؟! هه ...

لقد أرسلوني اليك ، والمعروف أنني مثل حضرتك .. بحر من الجهالة والنور . وكيف لاأكون .. وأنا مروض كبير يشار اليه بالأرجل والبنان . مروض لقطيع من التيوس ، نصفه من الاناث .. والآخر من الفحول .

ولكن لنمسك زئبق الخيوط .. فربما كنت مجنونا دون أن أعلم :

ما اسمك يا بني ؟ ومتى ولدت وكيف بدأت في المشي ؟ وهل كرهت أبويك .. أو تبولت في الفراش ؟

تذكر .. تذكر يا بني .

( أي دخل لهذا بما جئت من أجله ؟ ولماذا يهمك التبول والمشي ؟ )

كنت أروي لك أحداث الطفولة ، لانها ـ حسب علمك الغزير ـ مفتاح لكل المغاليق !! وكان في حديثي شيء من الحقيقة ، أما البقية ... فسلسلة من الاكاذيب . كنت أرويها وأنا مستلق على مقعد مريح ، والضوء يتماوج في الغرفة ويخفت شيئا بعد شيء ..

وفجأة تمزقت أمامي الجدران .. فرأيت مخلوقات طويلة مقطوعة

الرؤوس ، بأصابع كالخناجر .. وأيديها كفروع الاشجار . ولكن الغريب يا محترم ، تلك الجمجمة الرهيبة التي رأيتها تقفز بحرية على الاجساد ، بعينين مفتوحتين ... يتصاعد منها اللهب والدخان !! والغريب أنها كانت تشبهك الى حد بعيد !! عند ذلك صرخت من الرعب ، وأغمي علي ..! وبعد ساعات وجدتني على سرير أبيض ، وحولي زمرة من الممرضين ، وفي نظراتهم كلمة : مجنون .

كنت في مشفى المجانين ، آخر محطة في طريق العقل .. وذلك بفضل غبائك الفذ الفريد . وكنت تزورني كل يوم وتطلب مني أن أحدثك عن حياتي خلال الصغر !

( أتعنيك طفولتي الى هذا الحد ؟ وأي شيء تريد ؟ )

اذن اليك التفاصيل :

انني من أسرة عجيبة لم تسمع بها خلال تاريخك الطويل . لنا صداقة قديمة العهد بالموت والجنون ! بدأت بأحد أجدادي الذي مات في السجن . وجدي الآخر .. كان به مس فادعى النبوة والكرامات . وكان معجزة فريدة .. مخزنا من مخازن الحكمة ، وأكبر ألمعي في الاحتيال وتمزيق الاعراض .. فعلقوه على شجرة وشنقوه .

وأخي .. كان عبقري الشذوذ والتشرد ، فهام على وجهه في الليل ، ولم يعد الى اليوم .

وأبي .. كان ولوعا بالتجارب ، فأشعل النار في البيت ومات ضحية العلم . وأنا .. آخر فرع من فروع الشجرة المباركة ، على قيد الحياة ! ضيف على المجانين .

وفي لحظة من اللحظات ، واتت أبي فكرة ألمعية .. أشرقت في ذهنه كالبرق ، فصفق لها طربا بيديه ! أراد أن يختبر أمورا لا تخطر ببال .. تجارب على الهضم !! فعلقني في الهواء ، رأسي الى أسفل ، ورجلاي تشمخان للعلاء .

وبعدها أدخلوني المدرسة ، منبع المعارف والحكمة ، لاسجل فيها بأحرف من تنك ونحاس ، تاريخ أكبر غبي شهدته الدهور !

كنت موهوب الغباء يا سيدي الطبيب ، فقضيت ثماني سنوات بدلا من الخمس !! وكان نصف الدرس يمضي في الضحك علي ، ووجهي مصلوب على الجدار ، برجل واحدة .. ويداي مرفوعتان الى الهواء ، راية الهزيمة الابدية .

أما البقية من الدرس ، فكنت أقضيها سارح الذهن وأنا أحلم بعظائم الامور .. أضيفها الى رصيد المفاخر في مجد أسرتنا العريق !

وبقيت أحلم حتى العاشرة . وربما كنت سأقضي عمري سارح الذهن ، لولا أنني رسمت تاريخ التحول .. رسمته بيدي . وعندها تبدل كل شيء !!

أعلمت ما أريد ؟

أجمل مخلوقة على الارض .. بأحداقها المظلمة ، وفمها الجليدي ، فمها الدامي .. يا فم الذئب .

أختي .. يا سيدي الطبيب ! قتلتها دون أن أعلم ؛ فقد سقيتها سما للصراصير . ورأيتها تثب في الفضاء ، فحسبت أنها تمزح . فضحكت

بكل قواي • ولكنها ارتمت على الارض ممزقة الاحشاء •• في عويل كالكلاب •

ماتت •• وعيناها على عيني • والعجيب أنني نسيت !! نسيت الجريمة ، ويدي المصبوغتين بالدم • ولكن لاشيء يستطيع أن يمحو الجريمة والدم •

وخرجت من المدرسة الابتدائية ويمناي تلوح في الهـواء ، وفي اليسرى شهادتي الابتدائية •• **أعني جواز المرور •**

( نسيت أن أقول اني أعسر ، أيهم علمك الغزير ؟ )

* * *

والحياة تأتي بالاعاجيب !!

نباهتي العبقرية •• أين يا ترى كانت تختفي طوال ما مضى من الأيام ؟

قفزة واحدة ، قطعت بها عدة سنوات من زريبة العلم ! ثم خطوة صغيرة •• فاذا غبائي الوقاد يمر بالسنة الاخيرة ، آخر محطة للعلم ، دون أن أجهد الذكاء الكامن ، المشحون بالاسرار •

أعرفت ما أريد ؟

الدرة المكنونة في تاجي الفارغ •• رأسي يا سيدي الطبيب •

ومع ذلك تقول انني مجنون !!••

اني لأنحني من الاجلال ، وساخرا من تهذيبك الرفيع ، عندما تقول بأنني مريض •• وبالنفس يا محترم ! يا أضخم الطبول •

أحقا أنني مريض ؟ وأنك مؤمن بالاتهام ؟

اذن تمهل ؛ فعندي ما أمليء به صندوقك الخشبي ، رأسك الفارغ .. ذلك الذي وضعوه سهوا عليك :

بلغت آخر متاهة في سراديب العلم ! وحسب تعابيرك البلهاء ، يسمونها « الجامعة » .. ملجأ الكسالى والمتبطلين . ثم خرجت منها .. من تكية الدراويش ، ويمناي تلوح في الهواء ، ويسراي تحمل « الفرمان » .. شهادتي الجامعية ، أغرب تصريح الى التسول والخبز ، في تاريخ عالمنا الطويل .

خرجت من الجامعة ، ولكن رأسي كان كالغرفة المخلوعة النوافذ ، وكل ما قرأته في الكتب ، كان يتسرب من أبواب خلفية في جهة مجهولة من الرأس ... فلم أؤمن بشيء على الاطلاق .

خرجت من الجامعة ، وتفرق المسافرون .. ولكنني بقيت وحدي على الرصيف ، وقلبي مثقل بالذكريات : ملابسي الجرباء ، والجوع والتشرد ، وحب ضاع مع الخريف .

( أيعنيك أنني أحببت ؟ )

أحببتها سنوات .. وبكل ما أملك من الاخلاص والدم .

وقفت وحدي على الرصيف ، أودع ضجيج العربات وأرقب دخان القطار . ثم استقر بي المطاف ، فأصبحت في قائمة المدرسين .. قادة الشباب الصاعد الى الوراء ، ورعاة جيل من التيوس .

أرأيتني ياسيدي الطبيب ، والبرامج والكتب ، وألف دفتر حوالي ؟

انني لأضحك الآن ، وأستمر في الضحك حتى لأنكفيء على قفاي ، كلما تذكرت أنني أصبحت حارس الموازين وفي يدي المصير !

اضحك معي يامبجل ؛ فقد ارتفعت من الوحل ، من مقاعد الدرس ، برجل واحدة .. ويداي تخترقان الهواء ، ارتفعت حتى صرت سيدا من سادة الجيل !!

وأخرج في الصباح بخطى وئيدة ، وأولادي على طول الطريق ، يرفعون الايدي بالتحية ويهزون الرؤوس . وأنا أوميء بكبرياء وغطرسة ، كأنني سليل الاباطرة العظام !!

أرأيت الى الحياة كيف أنقذتني من الوحل !.. انها عبقريتي المصونة ، أثمن لؤلؤة في تاجي المرصع بالمفاخر والحماقات .. رأسي يا سيدي الطبيب ..

ومضت علي أشهر في منصبي الجديد ، وكنت خلالها أنسج المأساة . كنت أفرز الحقد الذي تغور في أعماقي من الصغر ، فيترنح الميزان في يدي . وحسب هواي ، أعطي الكتاب باليمين أو الشمال .. فأرفع من أريد وأسقط آخرين بلا حساب !

كانت طفولتي كالدبابيس الخفية ؛ ثماني سنوات وأنا أحتضن المدرسة الابتدائية ... بشغف بين ذراعي !! لمجرد نزوة طارئة من سيد الجيل ، معلمي العظيم .

من يلومني اذا صرت نسخة منه ؟ وهل ذلك شيء من الجنون ؟
كنت أفرز ما شربته من الحزن والحقد . ولكن ..
عفوا يا حضرة الطبيب ! أقلت لك انني كنت أنسج المأساة ؟

. . . . . .

لقد أحببتها من البداية ، منذ أول يوم رأيتها فيه . عندما دخلت

الدرس بهيئة عابسة .. وعلى وجهي « بطاقة » مدرس . كانت تجلس في أواخر الصف ، في المقعد الاخير .. كرمز للخطيئة والجمال ! وما أن احتويتها بعيني ، حتى شهقت .. شهقت يا سيدي الطبيب !!

أختي .. بأحداقها المظلمة ، وفمها الدامي ، يا فم الذئب .

أحببتها من البداية ، وكان الحب يقطر من أحداقها الواسعة .. فتشربه أعماقي كالرمال . ولكنها أوقفتني بترفع مطلق وكبرياء عنيد ! فعدت مليئا بالخيبة والحقد ، دون أن يعلم انسان ما يدور في النفس .

كنت أقسو عليها خلال الدرس والمذاكرات ، وكم تمنيت لو تثور . كنت أريد أن أحطم الكبرياء ، وأهدم بناءها الراسخ ، وأفجرها من الاعماق . لكنها ظلت في ثباتها المطلق ، هادئة كالموت .

هذه الملعونة .. أي تمثال من الغطرسة والجليد !!

« شكرا .. أستاذ ! » .. هذا ما تقوله ! حتى ولو أعطيتها صفرا ، ومهما قسوت .. كانت تقولها لي على الدوام .

و « شكرا .. » هذه ، هي التي قتلتني أيها الطبيب .

وانتظرت حتى جاءها الفحص الاخير ، فرصة العمر .. وآخر سلاح في يد العبد الفقير :

كانت مني على خطوات ، وكانت عيناي تتركزان في أحداقها الواسعة ، المتعبة .. كأفق لا نهائي من الظلمة والليل ! كنت أحدق في وجهها المرهق ، وأصابعها التي تمر في تشنج على الورق . وعندما كانت عيناها تلتقي أحيانا بعيني ، كنت أرى فيهما الضراعة ، والحزن والرعب .. وكان حزنها أبديا متصلا بأزلية الزمان .

كان مصيرها في يدي • وكنت خلالها أفرز الحقد الذي اختزنته ، الحقد الذي تقادم به العهد ••• فصار مرا كالنبيذ !!

وانتهى الفحص ، فتلاعبت بابرة الميزان ، وأعطيتها الكتاب •• وكان هذه المرة بالشمال •

لقد ارتفعت من الوحل ، وصارت الموازين في يدي • وضعتها آخر القائمة مع الراسبات ؛ لأحتفظ بها الى الدورة القادمة •• لاجعلها تجثو على قدمي •

وتوقعت أن تفعل ما يقرب من الجنون ، أن تجيئني وفي عينيها الرجاء ! ولكنها صفعتني بهدوء : « شكرا •• أستاذ » •• وهذا ما لم أدخله في حسابي يا معدن الغباء •

وبحقد وخيبة مريرة ، رأيتني أقول : « آسف ، الدورة القادمة » • ومرة ثانية ، من فمها النافر •• فم الذئب : « شكرا •• أستاذ ! لافائدة ! فات الاوان » •

لا فائدة ؟! وكيف لي أن أعلم ما تريد ؟

وانتحرت مساء ذلك اليوم • وأتاني الخبر ، فعدوت مجنونا الى المدرسة • ورأيتها تثب في الفضاء •• فظننتها تمزح •• وضحكت من كل قواي ! ولكنها ارتمت على الارض ممزقة الاحشاء •• في عويل كالكلاب •

أكان لي أن أدرك ، أنا •• سليل الوحل ونتاج أسرة من الجنون والموت ، أية هوة قد احتفرتها بيدي ؟

ماتت .. وعيناها على عيني . قتلتها دون أن أعلم ؛ فقد سقيتها سما للصراصير .

* * *

لقد اختزنت منذ طفولتي في سراديب النفس المظلمة ، مئات الغربان والخفافيش . وقد أطلقتها هذه اللعينة . وما ظننت أنه لا يطال ، هدمته بنظره .. فتمزق الستار وانفلتت **أسراب الخفافيش !!**

جننت ...

« شكرا .. » وأحداقها الليلية الواسعة ، وفمها الجليدي النافر .. هي التي قتلتني يا سيدي الطبيب .

يقول جهابذة الرياضة .. ان الطريق المستقيم أقصر الابعاد .

يا لتفاهة العلم !!

لماذا اللف والدوران ، والصعود الى أسفل ، والنزول الى فوق ؟ من البداية ، لو طلبت صراحة ما تريد !

لو سألتني : **لماذا جننت يا ولد ؟**

لأجبتك باختصار : « شكرا .. » وأحداقها الليلية الواسعة ، فمها الدامي .. يا فم الذئب !! هي التي قتلتني يا مزرعة الغباء .

# الصفير المزّق

هذه القطارات اللعينة .. ما لها تصفر هذا الصفير الممزق الملعون ؟

انها تصرخ دائما دون أن تسكت ، ألا تكف عن الضجة والصراخ ؟ فكلما قدمت الى الجامعة واجهني الصراخ والصفير ، هذا الصفير اللعين .. الذي ينبش ذاكرتي نبشا فظيعا ، فيختلط الماضي بالحاضر ، والحاضر بالمستقبل ، والحياة ليس لها أول ولا آخر .. كدخان القطار الممزق .

فأحس بحاجة جنونية للصراخ ؛ كأن كابوسا مريعا يجثم على صدري فيخنقه . ولكنني لا أستطيع أن أتحرك ؛ فهذه الدروس ، والتقاليد التي يحترمونها في الدرس ، تمنعني من الصراخ أو الكلام .. **والصفير لا يسكت ، والضجيج لا يهدأ ، أو لا يود الهدوء ! .. انه** يشبه صوت جارتي ، حين كانت تضع طفلها الخامس .. فوق ما عندها من أطفال . ألم يكفها أربعة ، حتى أثقلتني بخامس ؟

كان الوقت منتصف الليل ، وكنت نائما بعد ساعات مرهقة في

الدراسة والمراجعة ... الدروس ، والفحوص والمراجع ، والانسان لا يستطيع أن يحك رأسه !.. ثم الشهادة .. وأخيرا ما الفائدة ؟!

كنت مرهقا .. فأيقظتني بزعيقها المشؤوم . ألم يكن يمكنها أن تؤجل وليدها الى ما بعد ؟ في النهار على الاقل ! .. لماذا اختارت هذه الساعة بالذات ؟ لتضع طفلها الخامس ، هذا الخامس اللعين .. الذي سأتحمل وحدي مشقة مجيئه . ألم يكفها أربعة ، حتى تضيف الى الانسانية مسخا جديدا لا نفع فيه ؟

واع .. باع .. آع .. لقد جعل حياتي جحيما في البيت ؛ أيضا هذا الخنزير الصغير لا يكف عن الضجة والصراخ .

كم يكره الاطفال الصغار . انهم يشبهون الارانب المسلوخة !.. وكلما رأى وليدا جديدا ، شعر بقرف انساني يملأ رأسه وصدره .. ليته اذن لم يأت على الاطلاق .

كان « عدنان » يفكر في ذلك وهو ذاهل عن الدرس ، وكلمات الاستاذ تطن في أذنيه بلا معنى ، ومع ذلك فهو يهز رأسه هزات بطيئة بين حين وحين علامة الفهم !.. ليته يستطيع أن يتخلص من الدرس ، أو ليتهم يؤجلونه على الاقل ، لفترة أخرى لا يكون فيها قطـــارات ولا صفير ممزق .

كانت هذه الخواطر تملأ رأسه ، فلم ينتبه الى انتهاء الدرس .. حتى جاءه الآذن بوجهه المغضن ، صائحا بصوته المبصوق : ( خلص الدرس ، يا سيد ) . نعم .. خلص الدرس ! فجمع أوراقه وخرج .

كان المساء .. وكانت الساعة الخامسة .

مسكين هذا الآذن ؟ له سبعة كما يقول ، ولا يعطونه الا القليل • كيف يمكنه أن يعيش بهذا المرتب الضئيل ؟

سار « عدنان » والصفير يلاحقه ككلب أمين • عجيب أمر هذا الصفير ! •• لماذا يلاحقه وحده ، ألم يجد غيره من الناس ؟ وسار في طريقه الى البيت يمضغ أفكاره وخواطره • كم يود لو يشتري « ساندويشة » ممتازة ؟ ليتلذذ بطعمها الدسم ويمضغها حتى النهاية •

كان يتذكر هذا وغيره ، حينما اصطدم بنجاح • وكانت هذه صديقته المفضلة ! لا شك أنه كان في هذه اللحظة متشائما من كل شيء ، ولكن عليه أن يحدثها ويتظاهر أمامها بالمرح كما هي العادة في الجامعة • وكان يجد هذه المهمة سهلة أثناء الدراسة وبين الطلبة ، ولكن كلما وجد نفسه معها على انفراد ، شعر بحلقه يجف وبلهاث بارد ساخن ينهك صدره ويوقف الكلام فيه •

كانت بجانبه نجاح • يا لهذا الجسم ! كم يود لو يمسه • ولكن مجرد التفكير بأنه سيكون معها على انفراد كان يشل حراكه ويشعره برعب قاتل • وكانت الخبيثة تدرك حاجته اليها وتعرف هذه الرغبة فيه ، وتجد لذة في تعذيبه والسخرية منه كلما حاول أن يكلمها عن حبه • وكان يعرف هذا ، ولكنه يتغاضى ويوهم نفسه بأنها تحبه •

« سأكلمها الان » هكذا كان يقول لنفسه • نعم •• سأكلمها مهما حدث • وأحس بالشجاعة هذه المرة • وما وصل الى هذا الحد من التفكير ، حتى ارتجفت ركبتاه وأحس باضطراب شديد • وتمالك نفسه وهدأ اضطرابه • « لا بد ••• » وعندما فتح فمه تبخرت شجاعته

وارتجف صوته ! وأدركت « نجاح » ذلك ، فقابلته بضحكة ساخرة • فاسودت الدنيا أمامه وشعر بدوار رهيب • وكانت تمسك بصدره رغبة معقدة ، رغبة وحشية بأن يخنق هذه اللعينة التي تسخر منه ، أو يضرب رأسه بالاعمدة الكهربائية المنتشرة على طول الطريق ؛ لعلها تخرج هذه الافكار من رأسه ، أو يتخلص من هذا الاختناق •

لكن لماذا تضحك ؟ فعلا لماذا تضحك منه !! يتذكر أنه كان يضحك من أستاذه في المدرسة الابتدائية ؛ لانه كان أحول • فاذا أراد أن ينادي طالبا في جهة ، كانت عيناه تبحثان في جهة أخرى • وفعلا كان شيئا مضحكا ، وجميع الطلاب كانوا يضحكون • لقد نادى مرة أحد الطلبة في نهاية الصف ، وكان عدنان يعلم أن الاستاذ لا يقصده ، ولكنه وقف وقال : نعم أستاذ • واحتقن وجه الاستاذ وتلون بالاسود والاصفر ، ثم اتجه نحو النافذة وبكى حينذاك • لقد كانت صدمة عنيفة ، وكان مؤلما جدا هذا الشعور المتكرر بالنقص والتشويه • ولكن عدنان لم يكن يعرف يومها هذه العواطف ، ولا معنى صدمة أو عقدة نفسية • كان يهمه أن يضحك •

كان يضحك لهذا ، فلماذا تضحك هي الآن ؟ وتابع سيره بخطى محمومة حمقاء ، وضحكاتها تلاحقه وصفير القطار يخترق رأسه ، وقلبه مليء بالغضب والحقد •

« ليته يستطيع أن يتركها » لقد قال ذلك لنفسه آلاف المرات ، ولكنه دائما كان يعود اليها وكأنه مربوط بخيوط من المطاط • لعنة الله على تربيته ؛ فهي التي أوجدت فيه هذا الخوف والتهيب ازاء النساء •

حتى جارته اللعينة كان يخاف منها . وأحس برغبة شديدة للسكر . ليته يستطيع أن يشرب الآن .. يشرب حتى ينسى « نجاح » وضحكاتها الساخرة ، والجارة الملعونة والصفير الممزق .

كيف كانت حياته لو لم يكن في العالم شخص مثل « حنا » يقبل أن يصبره من أول الشهر لآخره ؟ سيشرب عنده اليوم كأسين أو ثلاث كئوس كعادته ، ويذهب بعد ذلك الى البيت .

كان يحس حرارة زائدة في جسمه ورأسه ، وقطرات العرق تنز من جلده وتنزلق عليه . لو أنه يملك الآن ليرة ، اذن لشرب بها كأسين من الخمارة القريبة . كان معه ليرة هذا الصباح . ليته لم يأكل بها عند الغداء ! كيف يمكنه أن يمشي تلك المسافة الطويلة حتى يصل الى « حنا » ؟

لو كان معه .. اذن لشرب بها الآن وأطفأ هذا الظمأ القاتل ، وجفف العرق عن لحمه ، واستراح من نجاح وضحكاتها ، والدروس ، وجارته اللعينة ، وبكاء ابنها .. والصفير الممزق .

انه يشعر بالتعب ، وثيابه مبللة بالعرق ، ولن يستطيع غسلها قبل أربعة أيام ، في موعد مجيء الغسالة .. بذراعها المشوه ووجهها المحروق . كيف يمكنه أن يصبر هذا الزمن ؟ شد ما يكره الصيف ، بحرارته الخانقة ، والغبار ، والعرق الذي ينضح دائما من الجلد ويبلل الثياب .

وظل يعلك أفكاره حتى وصل الى حنا . وقذف بالمحفظة على الدف ، ونفخ نفخة طويلة ثم استند على اللوح الرخامي قائلا : « هات بيرة » .. حنا .

لقد كان يحب هذا « الحنا » • انه الرجل الوحيد الذي يفهمه • فهو لا يسأله عن شيء أبدا : عن دروسه أو رفاقه ، أو لماذا يشرب • كان يعطيه صامتا ما يطلب ، ويوليه عناية خاصة • انه لن ينسى « حنا » على الاطلاق ، وسيكافئه عندما يتخرج من الجامعة • ودفع « حنا » الزجاجة المفتوحة ••• فشرب عدنان كأسه دفعة واحدة ، وصب لنفسه الثانية ، وشرب جرعة منها ثم مسح فمه بسطح يده ، ونفخ •••

لقد شرب كثيرا في الصيف الماضي ، ولكنه لم يشعر أبدا بارتياح لكل ما شربه ، كما يشعر الآن • لقد شرب كثيرا فيما مضى ، ويشرب الآن ، وسوف يشرب في المستقبل ، ولن يكف عن الشراب لحظة واحدة ، ما دام هناك امور لم تحل بعد : الجارة ، والصحون ، وزعيق الالاد ، ونجاح ، والصفير المزق •

وشرب كأسه الثانية ، والثالثة •• ثم مسح فمه بسطح يده • لقد جف عرقه وزالت حرارة رأسه وجسمه ، واستراح من الافكار التي كانت تزعجه ، ولكنه عاد يفكر من جديد : لقد شرب كثيرا هذا الشهر ، وها هو يشرب ، وسيشرب حتى آخر الشهر • وحسابه يتضخم يوما بعد يوم • عليه أن يتدبر الامر • ولكن ماذا يستطيع أن يفعل ؟ وحسابه يتضخم في كل مكان ، وباستمرار •

سيثور الجميع ، وحنا أيضا سيثور ، وسيبقى محروما من الشراب ، ولن يجد من يصبره حتى آخر الشهر •

وشرب كأسا رابعة • لقد شرب زجاجتين • لعن الله هذه « البيرة »••

لقد امتلأ بطنه ، دون ان يصل شيء منها الى رأسه • يجب ان يبدلهـ بالخمر • لعنة الله على هذه الحالة ، فالخمر تحتاج الى « مازة » وليس معه قرش واحد •

عرق حنا !

وشرب جرعة •• ثم عبس وبصق • انه يحتاج لشيء يأكله • حبة بزر على الاقل • انه لا يستطيع أن يشرب الكأس دفعة واحدة • وانتظر قليلا •• ثم شرب البقية •

كاس حنا •

وشرب أيضا • لقد كان طعم الخمر لاذعا ، أحرق لسانه وحلقه • ولكن ماذا يفعل ؟ عليه أن يشرب • وشرب الكأس الثالثه ، والرابعه •

انه يشعر الآن بارتياح أكثر • بارتياح خفي خفيف يسري في جسده ورأسه • لقد سقط الحاجز الذي كان يفصل بطنه عن رأسه ، وبخار الخمر يرتفع رويدا الى الرأس ويستقر فيه •• ضمن العظام المقفلة •

انه مسرور لان رأسه غير مفتوح من الاعلى كمدخنة القطار ؛ والا لكان البخار قد خرج من رأسه دون أن يستقر فيه ، كما يخرج الدخان من القطار •

وخرجت الافكار من رأسه ، والمرئيات صارت خفيفة في نظره • ولم يعد هناك ما يستحق التشاؤم • لقد صارت الحياة جميلة ، ولم تعد هناك أمور للحل : الجارة ، والاولاد ، والصفير الممزق •

سوف لا يخاف من الجارة ، ولن يغسل الصحون التي يأكل بها ،

أو فنجان القهوة ، ولن يزعجه صراخ الاولاد أو زعيق الخنزير الجديد .
واع .. باع .. آع .. بل سيخبطهم جميعا ، وسيحدث « نجاح » بحبه ويقول لها انه يشتهيها ، ويسألها لماذا تضحك منه .

وشرب كأسا جديدة .. عظيم !! وشرب أيضا .. ومسح فمه ثم بصق .

ودار رأسه ..

لقد كان يلعب وهو صغير ، فيدور حول نفسه دورات سريعة ثم يرتمي ويتمدد على الارض ، فيشعر أنها تقلب من أعلى لاسفل ، تماما كما يشعر الآن . عجيب ! ربما أصبح طفلا مرة ثانية . كان يرى الاشياء جميلة ، ورأسه يحلم بكثرة .. دون بداية أو نهاية .

وسحب محفظته ، وشرب كأسا أخيرة قبل أن يذهب .. وكان في طريقه الى البيت .

انه لا يستطيع المشي الا بصعوبة . وكان يخترق رأسه دوار رهيب . ليته يفقد الوعي ، أما هذا الدوار الملعون فلا يستطيع احتماله . ليته لم يشرب على الاطلاق .. القدح الاخير على الاقل .

كانت الارض تدور في عينيه . لقد كان في المدرسة الابتدائية لا يصدق أن الارض تدور . وكان الاستاذ يضربه دائما ، وهو يصر على القول : « كيف تدور ؟ » « لا اراها استاذ » . يا له من غبي ! انه يشعر الآن أنها تدور ، دون براهين علمية تقنعه . ليته عرف ذلك أيام المدرسة اذن لشرب عدة أقداح وانتهى الامر .

لا بد أن « غاليلي » كان سكران ، والا كيف أمكنه أن يعرف أنها تدور • رحمة الله عليه ، لقد كان طيبا هذا « الغاليلي » • لقـــد مات سكران ، بدليل أنه ظل يقول : تدور •• تدور ! نعم ، انها تدور •

وظل كذلك حتى وصل الى البيت •

انه لا يرهب الجارة ، ولن يغسل الصحون •• وسيحطم رؤوس الاولاد • وأخذ يتقيأ •• أين هذه الملعونة ؟

واستيقظت الجارة • لقد كانت تعرف واجبها نحوه • لقد جاءها مرارا وهو سكران ، ودائما يتقيأ كما يفعل الآن • وغسلت له رأسه ، وجاءته بفنجان من القهوة الساخنة ، فشربه • ولكن الدوار الرهيب ظل يمزق رأسه ويضغطه • ليت رأسه ينفتح من أعلى كمدخنة القطار ، حتى يخرج هذا البخار اللعين • عجيب !! لقد دفع ثمن هذا البخار الموجودة في رأسه ، فلماذا يتمنى الآن أن يخرج ؟ لماذا شربه ؟

سيكتشف السر فيما بعد • سيسأل « حنا » عن ذلك ، أما الآن فلا يستطيع • لقد كانت في رأسه أشياء كثيرة ، غامضة •• لا يعرف من أين أتته • انه يعرف محتويات رأسه ، ليس فيها شيء كهذا !!

ورويدا بدأت تختفي هذه الاشياء •• فالبخار الذي يملأ رأسه ، أخذ يتكاثف ببطء !

أين هو الآن ؟ انه يتذكر الجارة ، والدروس ، والجامعـة ، ونجاح •• وصفير القطار الممزق •

وعندما تكاثف البخار بأجمعه ، كان عدنان قد نسي كل شيء واستغرق في نوم عميق •••

# الجلاد

« وشعر بثقل في رأسه »

كان هذا كل ما وعاه عندما أفاق • وقال لنفسه اني أحلم • فرفع رأسه قليلا وتحرك ليطرد الحلم • لكنه أحس بجسده يؤلمه ، وبشيء يشد رأسه الى أسفل !

« وبصعوبة استطاع أن يحرك ساقيه »

وأدرك أنه لم يكن في الحلم :

كان منبطحا على الارض ، وقد التف ذراعاه حول رأسه بحركة وقائية ، كما لو أنه يتقي بهما الضرب • وتعجب من وضعه ذاك !! فظل فترة دون حركة ، وهو مستسلم لبرودة الارض التي تسري في جسده كمخدر ناعم ••• ورويدا بدأت تتضح له الاشياء :

لقد قبضوا عليه وهو يلصق المناشير • كان ذلك في المساء في شارع جانبي من شوارع المدينة • وحاول ان يقاوم في البداية ، لكنهم تكاثروا عليه وجروه الى سيارة مغلقة ، ثم فقد وعيه لكثرة الضرب •

وقفز الى ذهنه تساؤل مقلق : هل قبضوا على الاخرين ؟

فتح الباب آنذاك وملأ الغرفة نور ساطع ، فأغمض عينيه بحركة غريزية وتوقف عن التفكير .

صاح به الرجل القادم وهو يركله بقدمه : قف يا كلب . وعندما وقف قاده عبر ممر طويل بين صفين من الغرف المغلقة ، حتى وصلا الى غرفة مضاءة ، وكان الباب مفتوحا على مصراعيه .

قال لنفسه : انهم ينتظرونني اذن !

« وشعر بالخوف »

تنحى الرجل ثم دفعه الى الداخل بعنف وأغلق الباب . وقبل ان يسقط ، تلقاه رجل آخر من الغرفة وصفعه عدة مرات بسرعة البرق .

استعاد توازنه بصعوبة ، ونظر حواليه :

كان يجلس امامه شخص « مقطب الوجه » . وعلى خطوات منه وقف عملاق مرعب بهيئة من يتحفز للعراك واستقر بصره فترة على كفيه الضخمتين ، فأحس بالارتجاف . وعلى يمينه كان يجلس شخص « ناعم الوجه » وقد عقد ذراعيه على صدره ، وهو يبتسم له كما لو انهما في لحظة تعارف اولي !!. وقال الرجل الذي قاده : هذا هو يا سيدي . ويبدو انه كان يوجه كلامه الى « المقطب الوجه » فقد شمله هذا الاخير بنظرة فاحصة ثم حول وجهه شطر « الناعم الوجه » كأنه ينتظر الوحي . فهز له رأسه ببطء ...

آنذاك وقف « المقطب » ومشى حتى أصبح أمامه وجها لوجه .

« ووجد نفسه يتراجع بذعر »

جاءته صفعة من الخلف ، فمال قليلا الى الامام . لكن « المقطب » دفعه بخشونة وهو يقول : وقف يا حمار .

نهض « الناعم الوجه » : انكم تعرفون أساليبنا • وفر على نفسك العذاب واعترف بكل شيء •

قال لنفسه : لم يقبضوا اذن على أحد • ولاول مرة شعر بالاطمئنان•

وتابع « الناعم الوجه » •• اننا نحترم المثقفين ،

ارتسمت على وجهه علائم الحيرة والدهشة !! كيف عرفوه بهذه السرعة رغم أنه لا يحمل هويته ؟!

ـ لا مجال للدهشة ، كنا نراقبك منذ شهر يا أستاذ • لدينا جهاز محكم ، دقيق كالساعة • لا يمكن لانسان ان يفلت منه •

قال لنفسه : كان يدرس وجهي اذن •

« وشعر بالخجل »

وتابع « الناعم الوجه » •• اننا نبدأ عادة بالضرب والتعذيب ثم نحصل على ما نريد • ولكننا نحترم المثقفين • انني أقدر حماستك ، ولكنك تسير في طريق خاطىء مسدود • وأحب أن أقول لك ، باننا عند الضرورة لا نتورع عن استخدام كافة الاساليب • فنحن لا نعرف شيئا اسمه الله ، الشرف الضمير ••••• هذه الخرافات لا وجود لها بيننا • انظر : هذا هو قرآننا المقدس ـ وأشار الى كتاب ضخم على الطاولة • وبسرعة تناوله « المقطب » ووضعه أمام عينيه • كان عنوانه : فن التعذيب•

وتابع •••• هذا ما نؤمن به فحسب • انه خلاصة عبقريات الامم• تجارب عباقرة الاجرام في الارض • كان يتكلم بهدوء ، ولكن بقسوة وحزم •

وعندما انتهى من حديثه ، التفت اليه « المقطب الوجه » وقال بصوته الخشن : اعترف قبل أن نقتلك • اعترف بكل شيء •

تساءل ببلاهة : بماذا اعترف ؟!

صفعه « المقطب » على وجهه وهو يصرخ فيـــه : بماذا تعترف يا كلب ؟ الا تعلم بماذا تعترف ؟

وسمع صوتا من الوراء : الظاهـر يا سيدي أن رأســه يابس • يحتاج الى تكسير •

ـ معك حق • صحيح •

وبحركة تلقائية ، كنابض خفي ، كاشارة الانذار ، هجم الاخرون من الخلف •••

« وترنح تحت ثقل الضربات »

وعاد السؤال : تكلم • مـن هم رؤساء المنظمـة الذين يدفعونكم لتوزيع المناشير ؟

اعترف •

ـ لا أعرف

وجأر « المقطب » وهو يخبطه بيديه ورجليه : من يكتبها اذن ؟ أنت ؟ وحدك ؟ من ؟ تكلم

ـ وبعناد : لا أعرف • لا أعرف أحدا على الاطلاق •

ولاول مرة تقدم العملاق : دعوه لي ، سأجعله يعترف كالكلب •

وهبطت عليه كف العملاق • ضربة ثقيلة كالمطرقة ! ودار على نفسه كالسكران • ثم توالت الضربات أقسى وأعنف من قبل ، فانكفأ على الارض •

قال له العملاق بوحشية : اعترف قبل ان تموت من القتل • ولما لم

يجبه ، رفعه بيده عن الارض ، بينما كانت الثانية تكيل له الضربات • ضربات أخرى على البطن ، على المعدة بالذات • ضربات مصممة مدروسة ! كان العملاق عبقريا لكثرة الممارسة خبيرا عالميا في فن التعذيب •

« وشعر نحوه بالاعجاب !! »

هبطت ضربة جديدة ، استقرت تماما في نقطة الاتجاه كهدف مرسوم ! وحاول الصراخ ، لكن الصوت اختنق • كان ألمه لايطاق •••• وتأوه بانين متقطع مكتوم •

وأفلته العملاق فتكوم على الارض

غمره ماء بارد • فصحا قليلا وهو يشعر بصعوبة خلال التنفس ، كما لو أنه مقيد الاحشاء • وأحس بدوار هائل كهدير الالات •

وسمع « المقطب » يصرخ : هاتوا الكماشة •

وبحركة غريزية ، غير مقصودة على الاطلاق ، طوى أصابعه بعنف وخبأ ذراعيه !!

نهض « الرجل الناعم » آنذاك : لا لزوم للامر • اتركوه •

سأتفاهم معه • وباشارة منه ، أجلسوه على الاريكة ••• فتخاذل باعياء •

قال له : لا زلنا في البداية • لدينا أساليب اخرى كثيرة لم تسمع بها بعد • انني أحب ان أخدمك ، فنحن نحترم المثقفين كما قلت لك ، ستموت تحت التعذيب ان لم تعترف • واذا كنت تتوقع ان نتركك الان لتستريح ، فأنت مخطىء ، هذا الاسلوب نتبعه في القضايا العادية ، ولكن

الوضع مختلف بالنسبة لك • يجب ان تحصل على أسماء رؤساء المنظمة خلال يومين لقد تزايدت حوادث التخريب والمناشير توزع ضدك باستمرار • سوف تموت اذا لم تعترف •

« كان وجهه لا يزال يحتفظ بابتسامة الترحيب ، كأنهما في تعارف أولي ـ وتملكته رغبة قوية في أن يسأله !! »

انني أنصحك • انك تضحي دون فائدة • رؤساؤك جبناء • لماذا لم يظهروا على المسرح لو كانوا شجعانا لوجب ان يكون بعضهم معك الان ولكنهم يختبئون وراء الاعضاء •

سأعطيك مهلة للتفكير •

• • • • • • • • •

قال لنفسه : سأغفو هذه الفترة ولن أفكر في شيء • لا يمكن أن أصبح خائنا ـ أن أتحول من الذروة الى الحضيض • وعندما أغمض عينيه ، صرخ فيه العملاق ولف شعره على أصابعه الضخمة وأخذ يشد بعنف •

قال له « الناعم الوجه » : يجب ان تفكر في وضعك • هذا أفضل من النوم • ووجد نفسه يرضخ للامر ، وفعلا بدأ يفكر :

وبدلا من التفكير ، قفزت الى رأسه صورة الكماشة • • • • •

« فتحها العملاق • ثم تناول يده وأخذ يقلبها في كفه الضخمة بحنان • واقترب فم الكماشة المفتوح ، ثم انطبق على الظفر • • • وأخذ العملاق يسحبه ببطء • • • • »

وارتجف من الالم والرعب ، وطفرت منه صرخة دون وعي • خرجت من أعماقه الجسدية ، من بين أسنانه المطبقة بعنف •

تلفت حوله •••• كان الجلادون يقهقهون بنوع من التشفي والحقد • حينئذ لعن المنظمة ، والحرية ، والشعب الذي يكافح من أجله • ماذا سيجدي هذا الكفاح ؟ ما الفائدة منه بعد الموت ؟

قال لنفسه : انهم مصممون • سأموت دون أن يعلم انسان ، وربما اخترعوا قصة لموتي كعادتهم في مثل هذه الامور • وربما انكروا انهم قبضوا علي • حتى المنظمة ستنكر انها كلفتني بشيء !!

ماذا يملك أحرار العالم الذين ماتوا ؟ شهداء الحرية ••• ماذا يملك هؤلاء الان ؟ من أجل من سأضحي ؟ الشعب ، المبادىء ، الجماهير ؟؟ لقد وقعت نيابة عن الجميع •

« وملأه الندم والحقد »

لن يجدي هذا الكفاح • الاف من الشهداء ماتوا عبر التاريخ • صلبوا أحرقوا ••• سلخت جلودهم أو ماتوا تحت السياط • ورغم الضحايا فالانسانية لم تتقدم خطوة الى الامام • بل لايزال وجهنا الاخلاقي في بشاعة القرود •

وقال لنفسه باصرار : لن أغير شيئا من الحركة ، ولن يتبدل مجرى التاريخ : أيدرك التاريخ أنني ضحيت ؟ لا جدوى من الكفاح ••• انني أكافح بمفردي الان •

أجابه صوت داخلي كان ينبثق من عمقه ، صوت لم يعرفه من

قبل ، كان يتكلم بلهجة قاطعة وبايمان : يجب ان تستمر ، فالانسانية لا تعطي نتائجها دفعة واحدة • انها تراكمات جزئية يوما بعد يوم ، وعبر مئات السنين • سيأتي يوم لن يعذب فيه أحد ، ولن تهدر فيه حرية الانسان • ستفتح الابواب ويتنفس الناس بحرية آنذاك !

وأصغى لهذا الصوت الخفي المجهول •

« لقد حان وقت التضحية ! الان ، وأكثر من أي زمان آخر ، وهذا سر المقاومة والارهاب • لقد اصبحتم خطرا على الجلاد • يجب أن تصمد الى النهاية •• أحد شهداء الحرية في تاريخ الانسان • »

توقف الصوت برهة ، ثم تابع بعزيمة أشد ، وبوضوح : « لقد وضعوا ثقتهم فيك • كيف تخون ؟ قد تموت وحدك الان ، ولكن خيانتك ستقتل الجميع ـ أهلك ، أصدقاءك ، أنت •• يجب ان تصمد ، كثيرون ماتوا في هذا السبيل »

وقطع « الوجه الناعم » حديث الصوت الداخلي : ماذا قررت ؟

ظل فترة دون جواب ، ثم أشار له بالنفي •

• • • • • • •

صرخ « المقطب » : هاتوا الكماشة والسوط ••

تقدم العملاق منه ، وبتساؤل ساخر : الا تزعجك هذه الثياب ؟ وجرده من ملابسه وهو يقول : دعني أرى لحمه ! وأخذ يتحسسه بكفه الضخمة ، على مساحة الظهر •• على العضلات بالضبط !

وشعر بارتخاء لذيذ ، فاستسلم لهذه الدغدغة الناعمة ، كما لو كانت تداعبه أنامل امرأة ! وتمنى لو ان الدغدغة تطول ، لكن العملاق قطعها وهو يقول : مسكين ! ضعيف هذا الاستاذ ! ثم رفع ذراعه وهوى السوط فصرخ كما لو ان سكينا عريضة حادة ، تحز لحمه وتفري الظهـــر !

ضربة اثر ضربة ، والمقطب يسأله خلال الضرب : ماذا قررت ؟

« وأطبق فمه وكز على أسنانه بعزيمة واصرار »

وظل يضربه حتى تفزز اللحم وخضبه الدم .

رمى العملاق السوط .. ثم قلبه على ظهره وجثم على صدره وهو يكشر بوحشية الذئاب . وتناول يده وأخذ يقلبها بحنـان بين كفيـه الضخمتين .

( تماما كما تخيل منذ لحظات )

واقترب فم الكماشة المفتوح ، فأغمض عينيه ! ثم انطبق الفم على الظفر ، وأخذ العملاق يسحبه ببطء ... فصرخ بصوت ممطوط كعواء الكلاب .

اذ ذاك فقد « الرجل الناعم » الهدوء ، فانحنى عليه وأخذ يدق رأسه على الارض بصراخ مسعور : اعترف يا عرص . اعترف ..!! ولما لم يقل شيئا تركه وهو يقول : لا فائدة منه ـ خذوه .

أخرجوه من الغرفة وهو يجر قدميه ، وعجب آنذاك كيف استطاع ان يقاوم . أشد الحيوانات لا تستطيع ان تتحمل هذا العذاب . وقادوه

الى ساحة خارج السجن ، ثم توقفوا امام عمود خشبي وأدرك انها خشبة للاعدام !

سأله « المقطب » ألن تعترف ، اعترف قبل أن تضيع الفرصة . ستموت الان .

« لم يجب . كان قد قرر الا يعترف بشيء »

وتابع .. هل توصي لاهلك بشيء ؟

. . . . . .

ورأى عدة رجال ! لم يميزهم جيدا بسبب الارهاق والضوء الخفيف . ولكنه سمع صوت السلاح . ثم تقدم أحدهم فعصب له عينيه، وأوثق يديه الى الخشبة ..

وسمع صوتا آمرا يعد « ربما كان المقطب الوجه » .

واحد ... اثنان

ـ ماذا قررت ؟

وفي هذه اللحظة عبر في خياله شريط حياته دفعة واحدة ... دون تفاصيل .

ثلاثة ....

وشقت سكينة الفجر عدة طلقات !!

. . . . . .

« لم يشعر بألم »

وقال لنفسه : لقد مت الان . ولكنه وجد بدهشة كبيرة أنه لايزال

يتذكر وكأنه حي • يبدو ان ذاكرة الانسان تظل حية بعد الموت ـ لاتفنى مع الجسم • لو عدت الى الحياة لاخبرت العالم بهذه الحقيقة الجديدة عن الموت !! لم أكن اعرف ذلك من قبل ! ولكن كيف يموت الانسان ، وتظل ذاكرته حية ؟ لم يشك أبدا بموته : لقد اختفت الامه ـ ولكن الغريب في الامر انه يتذكر •

« وتوقف عن التفكير ••• »

سمع لغطا حواليـــه ـ وأحاطته أيدي كثـــيرة •• وأخذت تفك الحبال •

لم يمت اذن • كانت خدعة • وقال له « المقطب الوجه » حظك طيب لقد أخطأك الرصاص •

وأعادوه ثانية الى غرفة التعذيب

وعندما دخلها ، لم يستطع أن يتبين الاشخاص بوضوح • ولكن حسا خفيا أنبأه بأنهم سيقتلونه هذه المرة ، ولن يفلت الان !!

لم يكن ثمة ما يبرر هذا الحدس ـ برهانه الوحيد ذلك الحس الخفي ، غير المنظور •• حاسة ادراك الخطر والمصير •

كان يود أن ينام ـ ولكنه أحس بالعطش •• كان حلقه جافا ، يابسا •• كقطعة مشوية من الآجر •

لم يسأله أحد هذه المرة ، ولم يطلبوا منه الاعتراف !! بل أحاطته أذرع صلبة ـ وضعوا يديه خلف ظهره ، وقيدوا رسغيه بحبل كان يتدلى من السقف !

صاح صوت آمر : ارفعوه !

ووجد نفسه يرتفع ببطء عن الارض • وأحس في البداية بآلام هائلة في كتفيه • أراد أن يصرخ ، ولكن صوته ظل حبيسا في رئتيه بتأوه مخنوق •

ظل فترة على هذا الوضع •• معلقا في الهواء • وجاءه السؤال الابدي : اعترف • ولكنه لم يجب لم يكن يستطيع الكلام •

ورفعوه أكثر ، أعلى فأعلى •• وسمع بكل حواسه صوت تكسير العظام •• وانغرزت في لحمه رؤوس حادة كالسكاكين •

« عند ذاك أنزلوه الى الارض وفكوا الحبال من يده »

وهبطت ضربة على الرأس ••• وبحركة غريزية رفع يـــده للدفاع ، لكنها لم تتحرك ، بل ظلت بجانبه مدلاة •••

« كانت حركتها داخلية فحسب »

وجاءته ضربات جديدة •• زاغ جسده • لم يكن واعيا لما يفعل يبدو أن الجسد بطبيعته يدرك الخطـــر ! وارتطم بالجدار ثم وقع على الارض •

وعاد الصوت الآمر : هاتوا الكهرباء •

« وبانتظار مجيئه توقف الضرب »

وأغفى •• نام لحظات !! وايقظته ضربة قوية ، فاهتز دون وعي

لم يشعر مطلقا بألم الضربة • ربما كان في حلم •• هزه شيء ما ! دون ألم •• وكان هذا كل ماوعاه !

كان على استعداد هذه اللحظة ، لان يقول لهم كل شيء ، فقط لو تركوه يغفو •• لو سمحوا له ان ينام !

لم يتكلم ـ لا لانه صمم على عدم الكلام ـ لم يكن قادرا على التصميم ، ولكنه في حالته تلك ، لم يكن ليستطيع أن يقول أي شيء ، حتى لو أراد الكلام • كان ذهنه مفككا ، لا يستطيع ان يركز فكره في شيء •• أن يتحكم فيه • وكان جسده في أقصى حدود الانهيار •

تقلع الاظافر • الجلد بالسياط ـ السهر ، التعطيش وتكسير العظام ، كل شيء مدروس لقد جعلوه ينهار •

•• ورغم اعيائه تملكه الاعجاب •

تحطمت عظامه الان ، رئتاه أبطأتا ، وتنفسه مرفق بآلام شديدة كسكاكين تفري الاحشاء • وأدرك بحاسته الخفية ، حاسة ادراك الخطر والمصير •• انه أصبح على أبواب الابدية ، وسيموت بعد لحظات •

لم يجزع ، ولكنه اكتشف بدهشة ، حقيقة أخرى جديدة : لقد قاوم في البداية من أجل الحرية ، المنظمة ، الوطن ، الجماهير ـ أما الان فقد تلاشت هذه الاشياء ! لقد اختفت العقيدة تماما من قلبه وزال خيال الجماهير ! كان يدافع الان عن شيء آخر أعلى من العقيدة ، والمبادىء !! كان يدافع عن كرامته الانسانية ، بدافع من الكبرياء

الشخصي ! لقد أهين في صميمه كالحيوان ، وعذب فوق طاقة الانسان وهذا ما يموت من أجله الان • وقال لنفسه « يبدو أن شهداء الحرية في التاريخ ، ماتوا جميعا لهذا السبب • لقد غابت هذه الحقيقة عن كثيرين ، ولكنها صحيحة بالنسبة له •

ثمة حقائق جديدة لم تكتشف من قبل • كانت تنبثق من أعماقه بفيض عجيب ! وأراد أن يتابع الفيض ، ولكنه توقف •• رآها تختفي رغما عنه !

كانت تتراءى لعينيه طيوف من الالوان ! بقع عديدة ملونة •• وسط حقل من الظلام • وعبر الحقول المظلمة ، والى مسافات بعيدة ••• تراءى له فضاء واسع من النور ، فضاء بدون آفاق • ولاح له انسان غير مألوف ، انسان لم ير شبيها له في عالم الانسان •••

وحاول أن يتابع •• لكن شبحا أسودا حجب الرؤى عن عينيه ••• وداس الشبح بحذائه الضخم على أصابع يده •••

لم يسمع جيدا ما قاله الشبح ••• ولكن كلمة « اعتراف » كانت تطن في أذنيه • وبذل جهدا خارقا ، وجمع قواه ، ليرفع رأسه المحاصر بين قدمي الشبح ••• ولكنه شعر بثقل في رأسه ••• بشيء يشده الى أسفل كالاحجار • فأحنى رأسه ووضع خده على الارض ••

كانت رطوبة الارض تسري في جسده كنسيم هادىء أيام الخريف • « واستسلم لهذا الشعور »

قال لنفسه ـ في داخله فحسب : الدماء التي تبذل الان ••

« وأخذ النوم يتسرب الى عينيه »

وتابع بهدوء .. دون تفكير أو كلام .. « سيختفي شبح الجلاد .. وتعود عناية الله الى الارض » ..

واستسلم الى النوم الذي كان يتغلغل في عينيه . وشعر بنفسه ينزلق ببطء الى الاسفل . في غسق رمادي !! كلحظة ماقبل النوم .. لحظة الاغفاء .

وخال نفسه في حلم : فتحرك قليلا ليطرد الحلم .. ثم هدأت حركة الجسد ....

.....

« وكانت هادئة الى الابد »

# ع تابع ا ـــ

ـ ...!!

اسمي ؟

( من الضروري أن نكرر المأساة من جديد ؟ )

اسمك .. اسمك !! ألا مفر من الاسم ؟ اكتب يا سيدي أي اسم تريد . ولكن ما الفائدة الآن من الاسم !! لقد حدث ما حدث وانتهى الامـــر .

ـ ...!

أحمد .. ما دمت تصر على ذلك .

أحمد فوزية . حتما .

ـ ...

أرجوك ، لا تقاطعني يا سـيدي القاضي . لم أنت عجـل الى هذا الحد ؟!

( العجلة من الشيطان )

ـ ... ؟!

لا تحملق بوجهي وتكثر من الاسئلة ؛ انني أنزعج بسرعة • دعني أتكلم • سأحدثك بقصة هذا الاسم •• قصة حياتي وقصة الجريمة بآن واحد •

* * *

كيف أتحدث ، والخيطان مشتبكة برأسي ؟ كلما سللت خيطا ؛ اشتبك بغيره من الخيوط او انقطع في يدي •

( الصعوبة في البداية )

اعذروني اذا لم أسلسل الحديث ؛ فالحوادث قديمة جدا ، والذاكرة غير طيعة كما تعلمون •

أف •••

بودي لو أساعدكم لننتهي بسرعة • لكنني متعب جدا •• ( لاتنسوا أنني اقترفت جريمة ) ومع ذلك سأبذل جهدي وأفرز الحوادث حسب الزمان :

كانت أمي خادمة ،

أفي ذلك شيء يا سيدي القاضي ؟

••• تشتغل لتعيش • نحن الفقراء مساكين • نضطر في سبيل لقمة العيش أن نقوم بأعمال كهذه •

وماذا كان يمكنها أن تعمل غير ذلك ؟

كانت أمها غسالة • وأبوها ـ رحمة الله عليه ـ كان أجيرا كذلك • وكان رجلا طيبا ،

ـ •••!!

أي مانع في ذلك ؟! لانه أجير ؟

( في الفقراء أحيانا جماعة طيبون )

أنا خجل يا سادة • ربما تظنون أنني أقلد الافلام • منذ لحظة قلت لكم ان أباها : « رحمة الله عليه » وأقول لكم الآن ، ان أمهـــا توفيت بعده •

( لا أختلق شيئا من عندي )

توفيت بعده • بعد سنة تقريبا • فأصبحت بموتهما ـ تلك التي أضحت فيما بعد أمي ـ وحيدة •

كان عمرها ذلك الحين ، أربعة عشر عاما • ربما أكثر أو أقل •

( أمي لا تعرف عمرها بالضبط )

كيف تعيش ، والحياة ـ لا يخفى على حضرتكم ـ صعبة هذه الايام ؟ وأبواها لم يتركا لها شيئا ، والشوارع ملأى بالذئاب التي تتربص في الظلمة •

من يتزوج فتاة ، مثلها ، فقيرة ؟

••••

لا داعي للضحك • أتقبل أنت يا سيدي القاضي ؟

•• واضطرت للخدمة في أحد البيوت • وكان سيدها رجـلا متزوجا ، ومن أسرة غنية •

( الفقراء سلم للاغنياء )

عفوا •• أقلت لكم انه متزوج ؟

نعم • متزوج كما قلت •

ـ ... ؟

تمهل قليلا ، وسوف ترى أن له صلة بالامر ! فالنساء في عصرنا هذا لا يمكثن طويلا في بيوتهن : النزهة ، والخياطة ، والسينما ، وزيارة الصديقات ... ألف عذر للخروج !!

وتخرج الزوجة ، وتظل فوزية ( أمي فيما بعد ) وحدها في البيت .

( أتسمع جيدا ؟ وحدها في البيت . )

.. ويحضر سيدها في غياب زوجته ،

من يدري ان كان يتعمد الحضور ! ويصيح : قهوة يا فوزية ، سيكارة يا فوزية ، اذهبي .. تعالي يا فوزية . وتمتثل للامر فوزية . ويربت على خدها مبديا رضاءه ، ويضاحكها ... والزمن طويل يافوزية ، والرجل هو الرجل وطبيعة المرأة لا تتغير .

وظلت خادما أربع سنوات . من يعلم ما حدث خلال هذه المدة ؟ لا أنا ولا أنت يا سيدي . الله وحده يعلم . افترض نفسك ـ لا سمح الله ـ مكانه ، ماذا كنت تفعل .. وفوزية تتفتح أمام عينيك كالوردة ، وتنضج كالثمرة ؟

ـ ... !!

لا فائدة ، لا فائدة يا سيدي . كيف تحتاط للامر ؟ والنهاية ـ ولا أحب أن أطيل الحديث ـ واضحة ومحتومة !!

ع تابع ل س ...

فالرجل خبير ، والمرأة تتبع الرجل . وفوزية غريرة وثائرة . والبنت في هذه المرحلة الخطيرة من العمر ، تستجيب لاقل لمسة . من

يستطيع أن يمنعها من الانزلاق ؟ وتنزلق فوزية ... ويدخل اسمها في التاريخ !!

كانت ...

* * *

البذرة لا تموت !!

وفوزية تغتذي جيدا وتنام في مكان مريح . أين منها حياتها الماضية ؟ وتمضي أشهر قليلة ، فتنمو البذرة .

( أنا يا سيدي ) وتعلن عن نفسها بجرأة بالغة . وتهرع المسكينة الى سيدها ، ( فات الاوان يا فوزية ) وتنبئه الامر . ويقول لها ، رافعا كتفيه بلا اكتراث : سأفتش لك عن طبيب ليجهضك . وتصيح ـ ولا مبرر للخوض في التفاصيل ـ تجهضني ؟! لا .. أبدا .. طفلي !!

( لا جدوى من الصياح يا فوزية )

هه !! أسمعت يا سيدي ؟ تصيح بوجهه !! المغفلة الحمقاء . نحن الفقراء مساكين . ماذا تستطيع أن تفعل ؟ وتعوي بوجهه .. وتكرر العواء ! فيعطيها مبلغا من المال ، ويتعهد نفقات الطفل دون أن يعترف به . وتخرج فوزية ( أمي فيما بعد ) ذليلة .. تحمل العار والخطيئة .

كانت ...

* * *

ـ ... !!

لماذا أضحك ؟! هه ..

ما أقبح الجهل . ألا تعرفون شيئا عن طفولتي ؟! طفولة انسان بلا اسم .

لقد تعذبت كثيرا وعشت محروما من العطف والحنان . وكانت المرحومة ( أمي ) تضربني كل يوم لأبسط الاسباب . فاذا لم تجد مبررا لذلك ، اختلقت من الاسباب ما يستوجب الضرب . كانت تسألني أسئلة عديدة ، بلا غرض أو فائدة .

لا تظنوا أنني كنت أشترك معها في الحديث . كانت تسألني وتجيب بنفسها على الاسئلة . كانت تقول : « أنا أعرف أنه لا يعجبك ! » . « ماذا تريد ؟ تكلم يا قرد » ... وتنهال علي بالضرب في قسوة ، وتنطلق من فمها شتائم غريبة .

أما هذا الشيء الذي « لا يعجبني » فالله وحده يعلم ما هو ياسيدي .

( دون هذا لصالحي يا حضرة القاضي ، سأحاسبك به فيما بعد )

معذورة أمي . كنت الوحيد الذي تستطيع أن تصب سخطها وغضبها عليه . كانت تقول لي دائما : « أبوك .. أبوك » . وأحملق مذعورا في أرجاء البيت ... وأفتش عبثا عن ذلك الانسان الخرافي الذي اسمه : أبوك . ذلك المخلوق الذي أسمع به ولا أراه . وعندما تكررت خيبتي في العثور عليه ، بدأ الامر يلتاث علي ... واشتبكت من يومها الخيوط .

* * *

ودخلت المدرسة عندما كبرت ،

ـ ...؟

ايه !! من الغريب أن أدخل المدرسة ؟..

فعلا ذلك ليخلو الجو .. كنت أحيانا عقبة ! أفهمت ياسيد القضاة ؟

( سجل هذه النقطة ، ربما كانت الفاصلة عند الحساب )

.. تلميذ كبقية التلاميذ . وظللت بضع سنين . وتعلمت أشياء كثيرة .. عن التاريخ والهندسة ، وروما ، ونيرون الذي قتل أمه ..

( التاريخ يعيد نفسه من جديد )

وكان في المدرسة طلاب كثيرون . فقراء وأغنياء . ولكن لو سألتم أي طالب عن اسمه .. من أبوه ! لاجابكم دون خجل أو خوف .

ـ ...

أنا ؟ هه ..

أحمد .. أحمد فوزية . حتما . ماذا تتوقع أن أكون ؟

هل سمعتم بمثل هذه المهزلة ؟

عندما وقفت بين يديك ، أول ما سألتني عن اسمي . ( اسمي يتحدث عن نفسه ) قلت لك أحمد .. **أحمد ...**

وصرخت في : أحمد من ؟

أحمد فوزية . نعم .. فوزية يا محترم .

وابتسمت وضحكت ؛ كأنك حسبتني أمزح . ضحكت رغم أنه لا يحق لك أن تفعل ذلك ؛ احتراما للمنصب على الاقل . كيف لو كنت ـ لا سمح الله ـ مكاني ؟ ماذا كنت تفعل ؟ ودائما يخترق أذنيك ، وفي كل مكان : في البيت ، والمدرسة ، والشارع ، وفي الاحلام ... دائما يخترق أذنيك هذا الاسم ( لعنتي الابدية ) أحمد .. أحمد ...

وبعد ذلك تسألني لماذا قتلت !؟

من منا يحب أن يرتكب جريمة باختياره ؟ كم وددت لو تزول فكرة القتل من رأسي • لكن كيف أعمل ؟ والجذور عميقة في النفس ، والاشياء التي تدخل الرأس وتعشش فيه ، ضمن الذرات الدقيقة ، يقفل عليها الى الابد •• مفتاحها الجريمة !!

( البذرة لا تموت )

* * *

ـ •••

تقولون مضى زمن طويل ! وأنه كان يجب علي أن أعتاد هـــذا الامر •• وأنسى التفكير في الجريمة !!

انني خجل من فهمكم يا سادة ؛ فالزمن سلاح ذو حدين • لقد ترسب كل شيء خلال هذه السنوات •• ترسب في أعماقي وتراكم بعضه فوق بعض •

ألا تعرفون شيئا عن الماء ؟ الماء الذي يتجمع شيئا بعد شيء ، ثم يكتسح أعظم السدود !

ـ •••؟!!

ماذا ؟ هل « أخربط » في الحديث ؟

تمهلوا قليلا يا مجانين • أريد أن أوضح الامر ؛ لتكونوا على معرفة دقيقة بالجريمة ، ولأزيل من رؤوسكم البليدة كل فكرة عن جنوني المزعوم •

لقد فكرت طويلا في الجريمة ، وعزمت منذ آماد بعيدة •• ورسمتها

بدقة العنكبوت • لقد سرت في دمي ••• مع جراثيمه الدقيقة •• وفي ذرات الهواء •

عشر سنوات والحقد يلح علي •• وأنا أمنع النفس وأحبس شهوة القتل •

ـ •••؟

هه •• كنت صغيرا ذلك الحين •

« لا تؤجل عمل اليوم الى غد »

أي مجنون قال هذا الكلام !! ماذا لو انتظرت ، وكل شيء له زمانه المحدود •

وانتظرت يا سادة ، سنوات وسنوات • حتى اذا أزف الوقت ، ورأيتهما معا •• تقوض السد فاندفق الماء الحبيس •

ماذا تظنون بين العقل والجنون ؟ غشاء كنسيج العنكبوت •• ( لقد تمزق الغشاء )

•••••••

لحظة ، لأستعيد الحوادث • أحسها ••• بدأت تشتبك الخيوط •

نعم ••

بهذه السكين التي أمامك قتلت أمي • قتلتهما •• وضربت عرض الحائط بكل شيء : بالدين والتقاليد والاخلاق •

أتسمعون جيدا ما أقول ؟

دون هذا الاعتراف ، وسجل معه أنني عاق •

( ابرة الميزان تميل )

★ ★ ★

ـ ... ؟

لماذا معا ؟! وتسأل ؟

هما شريكان في الجريمة . الاثنان ..

لم أقتلهما . قتلت فيها العار ، وقتلت فيه النذالة . قتلت فيهما نظرات النـــاس الي ، والغمز كلما مررت ، وصراخهم .. ووراثي التصفيق : أحمد .. أحمد ...

هذا الذي قتلت .

صدقوا أنني كنت أكتفي بقتله ، وأصفح لها عن زلة قديمة . لست ديانا حتى أحاسبها . من منا لم يخطيء ؟

« من كان منكم بلا خطيئة ، فليرمها بحجر »

أعرف ذلك . لكن أنت يا حضرة القاضي ، هل تصدق أنها ظلت تجتمع به .. وتجتمع مرارا .. حتى بعد أن كبرت ؟

أحمد ..

انظروا جيدا الي ..

انني مخلوق قميء ، وهيئتي تستثير الضحك . لا مبرر للخجل والحياء . اضحكوا علنا يا سادة . انني مضحك فعلا . وفي المدرسة كانوا يتندرون علي .

سألتني عن اسمي ، وعمري ، وكيف ، ولماذا قتلت . يكفي هذا ؟ سلني لماذا أنا قميء .

سأكفيك مؤونة السؤال ، وأخبرك عن هذه القماءة ، وانها لقصة في غاية الحماقة والاضحاك .

عندما كنت جنينا حاولت أمي أن تخفيني عن العيـون • وكنت أتضخم باستمرار • ( أنا عنيد جدا ) فلبست حزاما عريضا ، من الجلد يا سيدي القاضي •

وشدت بطنها جيدا لتستر العار • أؤكد لكم أنها مجنونة وحمقاء !!

( البذرة لا تموت )

أيحق لها ذلك ؟ ألم تكفها جريمة واحدة ؟

شوهتني اللعينة !

هي المذنبة • أنا حملت وزر الجريمة • بقانونكم شيء كهذا ؟

( الآباء يأكلون الحصرم ، والابناء يضرسون )

لا • لقد تغير الامر • « من يزرع يحصد » لقد حصدا ثمـرة ما زرعاه • هذا هو القانون الطبيعي • من منا يجرؤ على الاعتراض !!

* * *

لم أقتل • شيء آخر ، قديم ، حبيس في صدري منذ أن وعيت ، هو الذي رفع ذراعي وكان يضغط علي •

أقسم لك يا سيدي أنني لم أكن حرا • كل شيء رتب على هذه الصورة ، بطريقة محكمة لا فرار منها ولا محيد •

دع الماضي ، من جديد رأيتها في ذراعيه !

قتلتهما ••

ـ ••• ؟

عجيب !! ما دخلكم في الامر ؟ من أعطاكم حق التـدخل •• والحكم علي ؟! هذه مسألة شخصية بيني وبينهما • لماذا لم تتدخلوا اذن

من قبل ؟ لماذا لم تمنعوها من الانزلاق ؟ وأين كنتم ذلك الوقت ؟

قتلتهما ...

القانون والاخلاق ، والعقاب وحبل المشنقة ،

لغو فارغ ، مجرد كلام !!

من يستطيع أن يمنع نفسه عند وقوع الامر ؟ هل تظنون أنني فكرت مثل هذا التفكير ، أو حسبت حسابا لمثل هذه الاشياء ؟

عندما يرتكب الانسان جريمة ، ويكون مدفوعا اليها . أقول : « مدفوعا » ترى هل يكون له مثل هذا التفكير المنظم ؟

لا . لا يا سيدي . اذا قيل لك ان المجرم يكون بوعيه خلال الجريمة ، فلا تصدق . لقد ارتكبت جريمتي بالسهولة التي تدخن بها لفافة . كنت أعمى عندما اقترفتها . شيئا واحدا رأيت : العبد الفقير الماثل أمامكم .. تميئا ، ذليلا ، يذوب من الخجل والعار . والتلاميذ في المدرسة يشيرون بأصابعهم ويتغامزون .. وجمعا من الاولاد يصفقون وراءه ، وأصواتهم تخترق أذني : أحمد .. أحمد ..

هذا الذي رأيت .

.....

أيزعجكم أن أتبسط قليلا في الحوادث ؟

لحظة من فضلكم لأستعيد الحوادث ! ( الخيطان مشتبكة في رأسي )

....

نعم .. فتحت الباب فرأيتهما معا ،

ـ ...؟!

ايه !! عجيب !! أقول لك « معا » . لماذا لا تصدق ؟
ومتعانقين !
ـ ... ؟
عند ذلك ؟
دقت المطارق في الرأس ، فتقوض السد واندفق الماء الحبيس .

* * *

يا حضرات القضاة :
فرق بعيد بين أن يكون الانسان « في » الشيء .. وبين أن يكون « خارج » الشيء . أنتم الآن خارج الامر . سوف تحكمون علي كما لو أنني كنت مثلكم حينما اقترفت الجريمة ، وهذا خطأ لا أحب لكم أن تقعوا فيه .
... !! ... ... !!
لا تحملقوا كثيرا بوجهي يا مجانين . ما دخلكم بالامر ؟ هذه مسألة شخصية بين وبينهما ... بيني وبين الله !!
( ابرة الميزان تميل )
كانت ... ( والخبر في ضمير الرجل )
ع تابع ل س

# على المسرح

## - ١ -

لم تكن مفاجأة عندما التقينا ، وما كنت أبدا على انتظار • كنت أعرفها قبل اللقاء ، وكنت على يقين بأننا سنلتقي في درب من الدروب •

كنت أحدس في طفولتي بأنني سألتقي بشيء مضحك ، يلعب دورا مهما في حياتي ، ولكنني لم أحدد موعد اللقاء • كنت في حالة توقع •• وكنت أنتظر المجهول •

وعندما رأيت هذه المرأة ، كان الزمن في الشتاء ، والكستناء في المدفأة ، والجمر يتوهج على الارض •• وأنا أستطيع أن أبكي وأخجل بوقت واحد •

وقبل أن أراها ، كان قد تقادم بي العهد ، وشهدت أياما عديدة صعبة •• وكانت الحياة ألعوبة في عمري حينذاك • لذلك تركتها تقودني بلا هدف ، وأنا أضحك ـ علنا ـ من الاقدار •

وكنت قد لعبت ، بلا تعمد ، أدوارا عديدة ، وصار لدي من الخبرة ما يؤهلني للمغامرة « باحتراف » اللعب •• وأن أخطو وحيدا الى الميدان •

لذلك لم يكن من الصعب علي أن أدعوها لاي دور لتلعبه .

كنت في سورة الشباب حينذاك ، وأول فصل من حياتي لم يكن قد تولى بعد ، بينما أغلق الستار عليها ولم يبق لها من الحياة سوى فصل واحد .

قلت لنفسي ، وكانت مني على خطوات : انها ممثلة !

لكن تجاعيد وجهها أنبأتني أنها ممثلة خائبة ؛ اذ كيف تحتفظ بوجهها وتعلن عن نفسها بطريقة مكشوفة ، وهي تعلم أنها أمامي ؟!

( ان أول شروط التمثيل : « التخفي » )

قلت لها ، وكنت بلا عمل في هذه الحقبة : لنلعب ! وكان اللعب غريزتي الانسانية آنذاك .

قالت : هل تلعب « الورق » ؟

قلت لها ، بهيئة خبيثة : انني أجيد كل الالعاب ، ما عدا لعبة واحدة لم أمارسها بعد !!

قالت ، وكأنها لم تفهم القصد : أي لعبة ؟ باصرة ، كونكان ، بوكر مكشوف ...

قلت : ألا يكفي أن يخلع الانسان ثيابه ، ويبدو مكشوفا على الارض ؟

قالت وهي تضحك : هل تلعب عن « شرط » ؟

قلت : سنلعب بلا تحديد ، والفائز منا يختار ...

ـ ... ؟!

( كأنها في حالة دهشة ، كأنها في حالة اعجاب )

لان المغامرة من طبعي ، وأنا لا أكترث للنتائج .

ـ ...؟ ( كأنها تسأل : لماذا ؟ )

المرأة من طبيعتها السكون . المغامرة فضيلة الرجل وطبيعته . يجب أن نغامر .. أن نكثف عمرنا في لحظة ، أيا كانت النتائج .

قالت : انك مهرج .

قلت لها بحقد ساخر : فعلا انني مهرج .

قالت : ويعترف !!

قلت : الآن ألبس دور المهرج . وهل تتوقعين أن أكون أمامك غير ذلك ؟ ولكن هل عندك دور مضحك أمثله ؟

ـ ... ( كأنها في حالة حيرة )

اذ انني بالواقع أجيد تمثيل جميع الادوار ؛ لان الانسان بطبيعته ممثل . أنا ، وأنت ، وكل انسان يستطيع أن يمثل ، فالعالم مسرح ، والحياة هي الرواية ، وكل دور له شخص يمثله .. لا ينازعه فيه أحد أو يحل مكانه .

( كنت أنتظر جوابها بفضول خفي ؛ فقد كان يبدو عليها أنها تحب أن تشركني بأيامها ، وتختار لي دورا معينا في مسرحية حياتها لألعبه . وكانت هذه الرغبة تلوح جلية على عينيها . ولكنني ـ بوحي خفي ـ تكهنت حقيقة الدور . كنت أعلم أن جميع الادوار تلائمني ما عدا هذا الدور !.. )

ظلت فترة دون أن تجيب ...

وفجأة قالت ، بلا تمهيد أو مقدمات : انني أحبك .

( يلوح أنها مجربة ، عكس ما ظننت أول الامر . لان « المفاجأة » أفضل وسيلة لهتك الاقنعة ... والولوج الى سراديب النفس . )

ارتبكت أول الامر ؛ فقد فوجئت ولم أكن قد تهيأت بعد . وقبل أن أفكر قلت لها ، زيغانا من الجواب : انني أشعر بالعبودية والخجل .

قالت : لماذا ؟!

قلت : انني أحب الكستناء ، وهذه الرغبة تلعب « مؤقتا » دورا مهما في حياتي ؛ لانها كانت تلعب نفس الدور في الحسرة الانسانية .

ويبدو أنها لم تفهم كلامي ، أو أنها تشمئز بحكم نشأتها المترفة من مشاهد الحزن ، لذا فقد ارتسم على وجهها تعبير عجيب عن القرف .

قالت ، وعلى وجهها ما ينبيء أنها لا تعي ما تقول : ألا أستطيع أن أمثل في حياتك هذا الدور ؟

قلت : أيهما .. دور العبودية أم الاضحاك ؟

أجابت بدهشة : بل دور الكستناء !!

( يا لها من ممثلة غبية ! كانت تعلن بحماقة عن الدور الذي تريد . والممثل الحقيقي لا يفصح اطلاقا عن رغبته في دور معين )

قلت ، وأنا أضحك من جهلها ، وعيناي تجوسان خلال وجهها المغضن : لا يستطيع غيري أن يمثله ؛ فهو من حياتي ، ولا يبصق الانسان ماضيه .

( الحقيقة أنه لم يكن لي أي ماض معروف ؛ اذ اني أستطيع في كل لحظة أن أتجرد من عمري وأعطي وجهي أفقا لا ينتهي من العفوية والبراءة .. فأبدو بهيئة انسان محايد ، وكأنني أكتشف الحياة أول مرة )

قالت : فعلا انك ممثل !

ورمتني علنا بنظرات تفيض بالحسد والحقد والاعجاب ، وفي نيتها أن تنفذ الى سريرتي من وراء نظراتها تلك .

شعرت بالحرج والضيق .. فأغلقت لها وجهي وتراجعت مختبئا الى الاعماق .

قلت : فعلا انني ممثل .

قالت : وأنا أحب أن أصير ممثلة .

قلت : ألا يضحك أنني كنت أحسبك ممثلة .. ممثلة عريقة على المسرح ، تلعبين دور الشهيد وكل أدوار الغرام والتضحية ؟

قالت ... ( فتحت عينيها بذعر حقيقي ، بطريقة أوضح من الكلام )

قلت : اذ ان النساء على العموم ممثلات ، وأنا أخاف من التمثيل أمامهن . فقد كانت « » تسخر مني كلما أردت أن أمثل دورا أمامها وتكتشف طويتي بتنبؤ غامض ، لذلك خلعت ملابسي أمامك خوفا من التراجع والخيبة ، ومسحت الطلاء عن وجهي لابدو كما كنت .

سألتني بلهفة : من .. من هي ؟

ولأتهرب من الجواب ، قلت : انني ممثل بالفطرة .

قالت : وأنا أحب أن أصير ممثلة .

( كنت واثقا أنها تهيء المسرح ، وتمهد لي الطريق لألعب دورا أمامها . وحتى أثبت لها أنني حقا ممثل ، تابعت نفس الدور ، دون أن أنبهها للخطأ الذي توشك أن تقع فيه . لانني كنت أرغب أن أجرب

ـ ولو مرة في العمر ـ هذه المهنة : متذكرا هاردي ، وشارلي شابلن ، والممثلين الجـدد ... وجميع مـن يلعبون أدوار الغرام والمضحك الانساني )

ويبدو أنني لمست عندها عقدة الرواية ، أو أنني كشفت سريرتها بحدس غير مقصود ، لذا تركتني وهي ترسم على وجهها ، بدون رصيد ، مسودة غضب زائف .

وحتى هذه اللحظة ، كنا في بداية الاتفاق على الادوار . وبما أنني لا أحب أن تفلت مني هذه الفرصة ، فقد قبلت غضبها المزيف ... وأشعلت سيكارة بانفعال زائد ، تعبيرا فارغا عن الحنق .

وعندما عادت ، كنت لا أزال مكاني وسيكارتي لم تنته بعد ..

قالت بلهجة شرسة وآمرة : اخلع ثيابك .

أدركت أننا نمشي بخطى سريعة ، وأنني لا ألبث الا قليلا وأشترك بعدها في الدور . لذا قلت لها رغبة في اطالة الوقت ، وتذكيرا بما قلته من قبل : ألا يكفي أن يظهر الانسان مكشوفا على الارض ؟

قالت : يبدو أنك ستعذبني كثيرا .

قلت ، هازئا من جهلها المفضوح : كيف أخلع ما لم ألبسه بعد !! ألم أخبرك بأنني خلعت ملابسي ومسحت الطلاء عن وجهي ؟

قالت : اعذرني لقد نسيت .

قلت ، وأنا أهم بارتداء الملابس : أي ملابس سأختار ؟

قالت : لا تلبس ان شئت . المهم أن نبدأ اللعب .

( اندفع من أعماقي خوف غريزي آنذاك . فعندما سألتها عـن

الملابس ، كنت أبغي أن أعرف أي دور سأختار ، وهذه أبسط حقوق الممثل • لكنها ، على ما يلوح من جوابها ، لا تعير أهمية لشيء ولا تعترف لي بأي حق • تريدني أن أدخل بأي ثمن في مسرحية حياتها العميقة )

شعرت باطمئنان اثر هذا الاكتشاف ، وجزمت بأنني لن أخيب في المستقبل مهما حدث ؛ لانني سألعب دوري كما أريد • ولأختبر صحة هذا الامر ، قلت : لا يمكن أبدا أن أمثل بدون أقنعة وفي حالة العري• اني أفضل البطالة على أن أحطم شهرتي من أجل دور مؤقت • فتشي عن غيري فأنا لا أقبل مطلقا هذا الدور •

( كانت هذه أول أكذوبة في تاريخنا المشترك • ذلك أنه لم تكن لي أية شهرة ولا أمجاد • كنت خاملا على المسرح ، أمثل التوافه ••• وكان يغمرني النسيان )

قالت ، وهي في دهشة لثورتي المفاجئة : لماذا ؟!

قلت : ألا يضحك المتفرجون في مسرح ، اذا رفع الستار فجأة •• فبدا الممثلون يلعبون أدوارهم عراة على الارض ، دون ستائر تحجبهم عن الاعين الفضولية •• دون مناظر تمثل مكان الرواية •• وحتى دون أقنعة تناسب الادوار أو تستر الوجوه على الاقل ؟ ألا يدهشهم هذا الخروج على المألوف ، ويصرخون تعبيرا عن الاستياء والاستنكار ؟

وعندما أنهيت كلامي كان وجهها يتلون بنظرة جدية ، وفي عينيها يتلاعب تردد بعيد •

ومرت فترة طويلة من الصمت ، وأنا أحلم للمستقبل ••• دون

أن أفطن الى أنها كانت ترمقني بصورة خفية • ويبدو أن صمتي أثارها ، أو أنها كانت تريد متابعة الحديث ، فقد صرخت بوجهي ، بنبرة غاضبة : لا يهمني أي انسان ••• أريد متابعة اللعب بلا زمان أو مكان ، وحتى دون أن أعين الاشخاص •

أدركت فورا ، من صوتها الذي كانت تنقصه الثقة ، والسهوم الذي نما رويدا على الاسارير ، والغضب الذي اعتراها ، أنها بدأت تفكر بصورة غير منطقية ، وأنها تريد التخلص من المأزق الذي أوقعتها فيه ، ولو أدى بها الامر الى الوقوع في تناقضات جديدة •

قلت ، محاولا أن ألفت نظرها على الاقل : والمتفرجون او النتائج ؟

قالت ضاحكة : سأنسحب من الرواية في الوقت المناسب ، وتبقى وحيدا على المسرح •

( أيقنت أن غريزتي كانت صائبة في حدسها الخوف ؛ فهي تريد أن تتنصل من تبعة عملها لتلقي مسئولية الخيبة علي • وبما أنني كنت بلا عمل ، فقد وجدتني مرغما على الانسياق في تيار رغباتها العديدة ، وقبول أي دور تعرضه علي ••• مضحيا بخبرتي القديمـــة وكل مواهبي في التمثيل )

وكانت اللعينة تدرك حاجتي هذه ، لذلك لم تكلف نفسها مشقة التفكير في مصيري بل أدارت كل شيء على هواها دون أن أستطيع الرفض أو الاعتراض •

كنت واثقا أنني سأنجح ؛ اذ ان الانسان ممثل بالوراثة •• ولكنني

أخاف أن تسدل الستائر فأصبح سجينا على المسرح ، فقد كنت الممثل الوحيد والاخير في هذه الرواية .

ان شيئا مجهولا يترصدني ويرغمني على اختيار الدور . كنت أريد أن أبدأ دورا معروفا ، ولكن خاتمة الرواية لم تتضح بعد .

سألتها مستوضحا : كيف يلعب الانسان دورا لم يحفظه بعد ؟!

قالت : ستأتي الحوادث بصورة طبيعية بعد أن نبدأ .

قلت : ألم تلاحظي .. لقد بدأنا فعلا ؟

وشعرت ـ بعد فوات الوقت ـ أنني تسرعت في الكلام ؛ فقد اعترفت لها بصورة عفوية ، أنني قبلت الاشتراك في اللعب ، مع أنني كنت أحاورها طوال الوقت .

قالت متهكمة : لم أهيىء المسرح بعد .

( كانت تتكلم دائما عن نفسها كأنني غير موجود على الاطلاق )

واعترتني نوبة عنيفة من الضحك ...

ـ ... ( كأنها تتساءل !.. وكان على وجهها الخوف . )

قلت : والمتفرجون !!

قالت ساخرة : والكستناء ..

ورفعت يدي لاحتج على هذا الفضول الغريب والتدخل بأمري .. لكنها أسكتتني باشارة من عينيها ، وهي تهز رأسها بازدراء بغيض .

ولما لم أجد أية فائدة أو مجال للاعتراض ، فقد رأيت من الافضل أن أعطيها زمامي هذه الفترة ... لتلعب بي كما تريد .

كنت أمر في طريق حرج ، وكنت أريدها أن تتخلى عن ريبتها

وتطمئن الي ؛ لتفصح علنا عن رغبتها وطريقتها في اللعب والتمثيل • لذا تخليت عن كبريائي وأنا أرمقها بولع وشوق •

أخذت تقترب مني بخطى بطيئة وثابتة •• وفي وجهها ما ينبيء عن نار عاصفة ! عند ذلك أحسست بجزع غريزي ، وأدركت أنها خدعتني طوال الوقت • فقـــد كانت ممثلة عريقـــة على المسرح ، بحيث شعرت ، أنا الممثل الحقيقي ، أنني غر أمامها •

وعندما لا مستني ••• ضحكت في وجهي بحنان مقرف شعرت منه بالخجل !! وانحنت قليلا علي •• ووجهي بين كفيها ، لتترك فوقه أول قبلة من دوري في مسرحية حياتها العميقة •

وافترقنا بعد ذاك •••

## ٢

كان قد مضى زمن على الوداع ، وكانت أيامي صعبـــة ذلك الوقت •• وأنا أسير وحدي بلا أمل ولا أهداف • كنت يائسا من اللقاء ؛ فقد هجرتها منذ أيام طويلة ، دون أن تخالجني نية الرجوع • فقد كان من عادتي أن أترك عمري بلا تحديد ، وأن أدع أيامي رهينة المصادفات الهوجاء • لذا تركتها بلا مستقبل ولا تاريخ •

وعندما لاح الشتاء ••• أغلقت في وجهي الدروب وأكل التجوال قدمي ! شعرت حينئذ بفراغ عميق وبالحاجة الى الدفء والحنان • لذا طويت غروري ذلك الوقت ، ورحت أبحث عنها بقلق وشوق •

قضيت في بحثي عدة أيام ، وذكراها تلح بحنين طاغ عني .. وتأكلني الليل والنهار . وأخيرا وجدتها تنتظرني في مكان اللقاء .

مررت بها ببطء ... وأنا أعطي لوجهي علائم اكتراث أبله . وعندما رأتني ، صرخت وأومأت الي !

كانت وحيدة في الغرفة ، وضوء الشارع يتسلل ببطء من النافذة .. خلال الشقوق وعبر الزجاج الملون .

أخذتها بلا تمهيد بين ذراعي ...

كنا ظلين على الجدار .. وكانت تسقط على خديها دموعا محرقة . قلت لها : آخر خدعة في دور الشهيد !! ولما لم تجب ، أيقنت بحدس غريزي أنها تبكي حقا . لذلك اقتربت منها ، لاضع بدوري على شفتيها المرتجفتين ، أول قبلة من دور الغرام المزعوم .

قالت : دعني ... انني مريضة ولا أستطيع التنفس !

عند ذلك شددتها بعنف بين ذراعي .. بدء تعبير حقيقي عن الغيظ .

قالت ، وهي تنتفض بذعر : لا أستطيع . انك أناني ووحش ؛ لا تهتم الا بنفسك .

( شعرت بالحيرة والتبس الامر علي . فقد كان في سلوكها ما يلفت النظر ! فهي تتردد بين الرفض والقبول ، وتترجح بين هاويتين، بحيث شعرت ، رغم الحدس الغريزي .. وكوني عريقا في مهنة التمثيل ، أنني لا أفقه شيئا من أدوار الغرام والمضحك الانساني . )

وكآخر حل للأمر ، تعبيرا عن الحيرة المستبدة .. ضربتها

على صفحتيها بقسوة !! فاستدارت نحوي كطفل صغير ، وشملتها موجة من النحيب .

تساءلت في سري : هل هذا أفضل حل ؟

وبما أنني لم أجد جوابا في لحظتي الحاضرة ، فقد ارتميت على الاريكة في صمت .. وأنا أرميها ، دون أن تشعر ، بنظرات استيضاح .

◆ ◆ ◆

أخذت تنسى ، في حميا الغضب والحقد ، أصول مهنتنا المقدسة !! ألسنا على المسرح ؟ ألم تدرك بعد ؟ يا لها من انثى بليدة ...

كانت تخلع ، بلا وعي منها ، بعض الاقنعة . فاستطعت بذلك أن أكون فكرة غامضة عن أسارير وجهها ، أما ما يكمن وراء هذا الوجه ، فقد استعصى علي وظل بعيدا عن الحدس .

اكتفيت مؤقتا من دورنا الحاضر بهذا الظفر الجزئي ، فنهضت عن الاريكة ووقفت أمام النافذة ... وفي وجهي ندم غير محدود .

قالت : لا تحجب الضوء .

قلت : البسي ثيابك يا امرأة .

وعندما استدرت نحوها ظنت أنني أزمع الخروج ، لذلك ارتمت وله علي وهي تقول : لقد سئمتني بسرعة . اليس كذلك ؟ كل الرجال سواء !

أدركت شيئا من السؤال ... كانت تريد ان تشعر أنها أثيرة لدي !! فقد عانت خلال حياتها الطويلة ضروبا عديدة من الذل والهوان .

لقد كان لها ماض عجيب رأت خلاله كل المسارح وآلاف الممثلين . ولكنهم كانوا ينظرون اليها كشيء عابر يهملونه في أي وقت يريدون. لذلك كانت على استعداد لان تضع مواهبها في خدمتي ، وأن تهدر أنوثتها الى الابد ، فيما لو قلت لها هذا الشعور .

وبغتة اكتشفت الحل وعرفت طبيعة الدور الذي سألعبه !..

كان لها وجهان مختلفان ومتناقضان ، كلاهما يطل على النهاية ويمتد الى ابعد الحدود . كان علي أن ألعب أحد دورين : اما دور العبودية المطلقة ، أو دور القسوة المطلقة .

لم أكن واثقا من صحة هذا الحدس . مجرد افتراض . تساءلت : هل ألعب معها على هذا الاساس ؟ لكن بأي دور سأبدأ ؟

كانت البداية امتحانا خطيرا لمواهبي ؛ فأنا أعلم أن أية خيبة تصيبني الان ، ستترك آثارا تواجهني حتما في مستقبلي . وشعرت أنني أميل بطبعي الى القسوة ؛ لاثبت ـ فيما لو فشلت ـ رجولتي على الاقل . وعندما أخذت في التهيؤ لهذا الدور ، لمحت على عينيها أشباح ثورة عاتية ...

أدركت ، وأنا دهش لهذا التبدل المفاجيء ، انني وصلت بعد الاوان.

تراجعت عن هيئتي بسرعة ، ودخلت دور العبودية ..

قلت في سري : جرب .. ولو مرة يا ولد !

لذلك استكانت في خضوع على ذراعي ، عندما قبلتها بحنان زائد .. وبولع محموم .

خدعتها • ما أغبى النساء • يرمين سلاحهن بسرعة •

قالت بصوت أشبه بالهمس : انني احبك •

( كان من عادتي خلال ماضي ، أن أتهرب من الجواب . محافظا بذلك على أول شرط من شروط التمثيل • « التخفي » أول الشروط )

قلت لها ، متجاهلا هذا الاعتراف ، لماذا تظهرين بلا أصباغ ؟!

قالت : أي مانع !! اننا وحيدان ••

ضحكت علنا لحمق الجواب ، وقلت : ربما نفاجأ ••• وربما لن نستمر !

هزت كتفيها بلا جواب •• بنظرة تحذير أصم !! ( كأنها تقول : لا يهمني ولكنك ستندم لو فعلت ! )

( عبرت الى فكري لمعة تحذير خفي ، فأدركت أنني أجتاز خط المصير •• وأزلق رويدا ، بلا توقف ، على منحدر صلب )

وعندما نظرت اليها •• وجدتها تتشاغل بملاعبة قطة صغيرة ! لذلك لم تكلف نفسها مشقة النظر الي •

كان يلوح عليها أنها لا تريد الجواب أو الحديث • وكنت قد تعبت من الكلام •• لذلك انسحبت الى زاوية من الغرفة ، وانطرحت على الاريكة متظاهرا بالنوم •

نهضت بسرعة حينذاك ، وكنت أرقبها من خلال عيني ، وقبضت على عقارب الساعة بعنف !! كأنها كانت تريد أن توقف الزمن ، وتقنعني بأنها لا تزال في مقتبل الشباب •

كان فارق الزمن من البدء ، يشكل بيننا هاوية عميقة ! ولكي أجتاز

هذه الهاوية ، كان علي أن أحذف نهائيا ، كل فوارق الازل بين عمرينا .. وأن أمحو الماضي وأتنازل عن كبريائي الموروث ، وكل الميول التي تغلغلت في أصلي من الطفولة .

( ترى هل أستطيع ؟ )

تلفت حينئذ حوالي ... كان العالم وحيدا في عزلته ، وكل انسان يمثل دوره ويسير بلا توقف نحو الهدف . أيقنت أنه مصير عالمي ولا يحق لي أن أتراجع أو أفر .

تأكدت أنها أوقعتني ، قسرا ، في الطريق المألوف ... وكانت تنظر من بعيد الي !

لم أستطع أن أقاوم شهوات عينيها المضيئين ، وتلك أصالة الخطأ في طبعي منذ الولادة . ورغم أنني أعلم ، فقد عزمت أن أبيع لها عمري من أجل هذه اللحظة ، لذلك انحدرت في نفس الطريق .. دون أن أتساءل عن المصير . وعندما أوشكت أن أصل الى النهاية ، شعرت بندم ونفور مفاجئين .. واعترتني موجة شفقة غريبة !..

نظرت ...

كانت طفلة بعد !.. قلت لنفسي : أليس من القسوة أن تموت ؟

اندفع الوحش من أعماقي .. وبلهجة قاسية ، كأنه حيادي عن الامر ، قال : انك مخطيء ؛ وربما خسرت الدور في الختام .

أمسكت يديها آنذاك ، وضممتها بشفقة فارغة .. وأنا أسقط على خديها دموعا كاذبة .

تساءلت عن المدى الذي سأصل اليه ؟ اذ أنني بلغت من الحمق حدا لا يمكن لي أن أقفز وراءه أو أتخطاه . انني أحس منذ الآن بخجل حقيقي ؛ فقد تنازلت عن كبريائي وكل صفاتي الاصيلة مقابل لا شيء .

ترى أي شيء كان يدفعني لذلك ؟

كان السؤال يواجهني بقسوة هائلة ، وكان يستلزم جوابا بلا تردد . لان مصيري ، وكوني سأختار ، يستلزم أن أحدد لمستقبلي ، موقفي من أشياء كهذه .

وعندما حاولت أن أتكلم .. لمعت في ذهني شرارة تذكر مفاجيء ، وعادت الي صور أشكال قديمة ...

انكمشت برعب ، وسترت وجهي بيدي ، وأنا أصرخ بصوت مختنق أصم : لا .. لا يمكن أو يجوز !!

. . . . . .

_ ٣ _

( لقد رأيت هذه المرأة من قبل ..

كنت طفلا حينذاك ، وكانت في مثل عمرها الآن . كأني أعيد معها نفس الحوادث ، مع فارق الزمان . كنت أمثل وقتها الخضوع ، وكانت تقبلني على عنقي وشفتي ، ثم لا تلبث أن تثور .. كما تفعل معي اليوم . واستسلمت لها ذلك الوقت فترة من العمر ، وكنت أنمو خلالها كدودة القز . ثم تغيرت كثيرا عندما تقدم الزمان ، ولكنها لم تتبدل الى اليوم .

انني لا أذكر تماما كل ما حدث ذلك الحين ...

ماتت أمي وأنا صغير . كان ذلك في المساء . وعندما استفقت في الصباح ، لم أجدها بجانبي حينذاك ! رأيت حشدا من النساء .. بصراخ يشق أذني . وكانت أمي نائمة في فراش قريب ، فلذت بها ، كعادتي ، من الخوف . لكنها لم تبتسم أو تنظر الي !.. آنذاك شملني الرعب ، فأخذت أبكي بصوت مسموع .

ظللت وحيدا عدة أيام . وبحدس الطفولة الغامض .. شعرت أنني مكروه وأنني ممثل تافه لا دور له على مسرح الحياة .

وتشردت بعدها في حقول واسعة مغلقة الحدود ! كانت مغلقة بشكل يرعب كياني الصغير . ولكن رغبتي في أن أجتاز العالم ، أو أخلق عالما جديدا من العدم ، كانت تضفي على تشردي نوعا من الكبرياء الحزينة ، التي تشعر ، ضمن اطارها المغلق ، بأنها أقوى من العالم .. أقوى مما هي عليه بكثير .

كنت أحدق بكسل ، وبعيون يخالطها الارهاق والوسن ، في الفضاء الشاسع البعيد . وكنت أجد لذة غريبة في مطاردة الحشرات أثناء الصيف .. صيف العالم المجنون . فأجري وراءها مسافات طويلة .. حتى اذا أمسكت واحدة منها ، نتفت لها الجناحين ، وتركتها تقفز ، سدى ، على الارض ، وأنا أرقب بزهو وحقد محاولاتها الخائبة للطيران من جديد . وكان هذا العمل تسليتي الوحيدة ، دون أن يكون لي غرض وراءه .. أو أية فائدة على الاطلاق .

وفجأة ، خلال التشرد ، رأيت هذه المرأة في أحد الايام ...

لم تخالجني أية دهشة لذلك ؛ كنت أتوقع من قبل حدوث شيء كهذا ، وأنتظر مجيئه بقلق ولهفة !.. لانه ليس من الممكن ، أوالمعقول ، أن أظل وحيدا الى الابد .

كنا بعيدين في البداية ، وعندما اقتربنا وأصبحنا وجها لوجه ، قالت : يا ولد !!

رفعت لها بصري بتوجس وفضول طفوليين .. ثم رميتها بحشرة كانت معي حينذاك ، وأنا أضحك بصوت مرتفع .

ضحكت المرأة ، وضحكت أنا مرة ثانيـة ، وعنـدما كففنا عن الضحك ، تأملتها بامعان لزمان قصير . وبعد ذلك ، ودون أن أعرف السبب ، شملني النحيب .

قالت المرأة ، بألم بالغ وبسرور خفي : أتبكي يا ولد ؟!

واستغربت فعلا هذا الامر !! ولاجد تبريرا مقنعا ،ولو لهذه اللحظة فقط ، قلت : انني أبكي من أجلك يا امرأة .

قلتها بصورة عفوية ، ودون أن أرمي الى شيء . وعندما تمعنت جيدا بوجهها ، لمع في صدري سرور خبيث ! فقد استطعت التأثير فيهـا وخدعتها بوقت واحد .

قالت ، وكأنها تتذكر أشياء قديمة ، كمن يناجي نفسه : مـــن الغريب أن يحدث لي هذا أينما ذهبت !!

قلت : الى أين تذهبين ؟

( وتملكني فضول ملح لأسمع الجواب !! ذلك لانه سينير لي كثيرا من الامور . )

أجفلت قليلا لهذا السؤال ...

قالت ، متهربة من الجواب : سوف تؤذيك الشمس ايها الصغير .

« وسحبتني الى مكان ظليل »

استلقت المرأة على العشب ، وجلست قربها وأنا أعبث بالتراب وأخط رسوما دون كلام . وكانت الرسوم طرقا للسير ، تؤدي الى مدن وهمية مجهولة .. وأحيانا تحيطها الحقول وتهجع تحت شعاع من الصيف !

ورأيتها تتأمل الرسوم ..

قالت بغتة : انني أسافر دائما أيها الصغير .

وسألتها : لماذا ؟

أجابت بحزن : العالم يتغير باستمرار ، والانسان توق لا يحد .. توق الى مجهول !

ولانني لم أفهم من كلامها أي شيء ، قلت : وهل تسافرين وحدك ؟

( وكان في قولي هذا تلميح خفي لرغبتي في التشرد ، واجتياز الحدود المغلقة .. لطفولتي الوهمية )

قالت : هل تذهب معي ؟

ـ ولكن ماذا سأعمل ، وكيف سأعيش .. وأين سنذهب ؟ لقد رحلت كثيرا الى عوالم خيالية ، ولكنني لم أر شيئا بعد من العالم الحقيقي . ثم انني أخاف من المجهول يا امرأة .

قالت ، وهي تبتسم في وجهي : انك لا تزال في مرحلة لا يحق لك أن تتعرف فيها على أكثر مما تعرف الان • ولكنني سأطلعك على كل شيء فيما بعد •• في الوقت المناسب • وسأريك كثيرا من العوالم •• مما لم تحلم به الى اليوم •

ـ حتى عالمك الخاص •• أو ماضيك المليء بالاسرار ؟

قالت : لماذا تريده ؟ وكيف عرفت ؟

« ورأيت على وجهها الذعر »

قلت : انني ، دائما ، أحس الزمان •

أجابت باستسلام : ربما يا ولد •• ربما فعلنا أي شيء •

وبدا لي أن حجتها منطقية ومقنعة •• أو هكذا ظننت • لـــذا أسلمت قيادي لهذه المرأة العجيبـــة ، التي ترغب أن تستأثر بكل شيء في •

تساءلت سرا عن فائدة طفل مثلي ، لامرأة خبيرة قد جـــابت الآفاق ! ثم لماذا انا بالذات ، وهناك أطفال كثيرون ؟

واعتراني الخوف • وتخيلت الجنائز التي شيعوها امام عيني ، والعفاريت التي كانت تبرز من الظلمة • وانبثق في خاطري ذلك العالم المسحور الذي وعيته في تشردي السابق • ولكن عندما عزمت عـلى التراجع ، كنت قد قطعت معها مسافة طويلة ولا مجال للنكوص •

واشترت لي باديء الامر ألبسة جديدة ، ولما سألتها عن السبب ، قالت انه يجب علي أن أبدو بهيئـــة مقبولة ، خلال الرحلة ، لئلا أثير الشكوك •

قلت ، وقد عاودني الخوف ، هل سنقوم بأعمال من هذا النوع ؟

ـ لا ..

قلت : اذن ؟!

قالت : هكذا أريد .

سكت مرغما وأنا أشعر بندم عميق . فقد غدوت تابعا لها مجردا من كل حق في تقرير المصير . وهذا ما دفعني فيما بعد لان أخفي رغبتي ولا أظهرها على الاطلاق . وقد أفادني هذا الامر ؛ اذ انني عندما كبرت ، خدعت كثيرات دون أن يتطرق الشك الي .

وكان يعزيني هذه الفترة ، أمل ضئيل بأن يطول بقائي معها فأتقدم بتجاربي أكثر ، وحينئذ سأبرز ميولي دون خجل أو خوف ، وأفرض عليها ارادتي وأخضعها بأقسى مما تفعل الان .

وعندما التفت نحوها ... وجدتها ساهمة وعلى وجهها البؤس ، فاستغرقت في أحلام براقة مجنونة ، وأنا عازم على رفقتها الى الابد .

◆ ◆ ◆

كنا سائرين بلا هدى ، سادرين بلا أمل ... وفي اعماقنا تساؤل مبهم عن المجهول الذي يربط بيننا ويوقف الرغبة الحقيقية في رمي الاقنعة والظهور بلا ألوان !

وكان يسيطر علينا احساس بتفاهة التجربة ، ويسد الطريق في وجهنا شعور بالوضاعة ، ينبثق عمدا من صميم الخطيئة المخجلة ... ويملأ كياني بسم قاتل . وقد أوشكت مرارا ، لسذاجتي الطفولية وقلة خبرتي بالعواطف الانسانية ، أن أبصق مشاعري بوجهها وأطلعها

على الحقيقة ، لولا أنني كنت واثقا أنها ستسخر من اخلاصي المضحك وتستعبدني الى النهاية • وقد استغربت فيما بعد ، كيف أنني فطنت – رغم طفولتي – الى أمور كهذه •

وعندما استفقنا من الاحلام ، بدت على البعد أشباح معتمة ••• تلفت حينئذ الى المرأة ، فرأيتها تخالسني النظر باهتمام زائد ، وبارتياب !!

قالت : سنسكن هنا •

أحسست برهبة ! فقد كانت تخيفني الظلمة منذ الطفولة ، كما أنني لم أتبين أي شيء يصلح لان نعيش فيه • لكنني لم أتكلم ، ولا جرؤت على الاعتراض • بل أومأت لها برأسي علامة الموافقة والخضوع•

وعندما اقتربنا من الاشباح ، داخلني شيء من الطمأنينة والهدوء • فقد رأيت بيتا قديما ترك الزمان آثاره جلية عليه • لكن الغريب فيه ، حديقته الواسعة ، المهملة ، المحوطة بأسوار من الهواء •

وعندما بلغنا جوانب البيت ، سمعت لغطا من الداخل ، مع أن ظاهره يوحي بأنه مهجور منذ أمد طويل • تلمست بأناملي الباب ، وطرقت بهدوء زائد عليه ••

غمرتني عفونة رطبة من الهواء الحبيس •

صرخت بفزع ودهشة !! ذلك أنني لم أر أي انسان يفتح لنا الباب • وعندما لفت نظرها لهذه الظاهرة ، ضحكت بصوت خشن فيه كل معاني ظفر الحقد • ثم سحبتني الى الداخل وأغلقت خلفنا الباب •

أدركت أنني سجين !

( عاودتني شكوكي القديمة بحقيقة الدور ، وتمنيت لو أنني ظللت

مكاني في حقولي الوهمية ، ولم أرافقها على الاطلاق )

ولأخفف من حدة الصمت ، قلت لها ضاحكا وأنا آخذها بين ذراعي : هل سنقضي العمر في هذا المكان ؟ أم أنني سأرى بعض الامكنة الاخرى ... شيئا مما حلمت فيه ؟

أجابت بضحكة غامضة : ربما قضيت عمرك !!

ـ وأنت !

قالت ، بصوت يخنقه الدمع : لقد لعبت دوري .. وما تبقى من حياتي لا يستحق أن أعده من العمر .

أدركت أنها ستوصلني الى هذه المرحلة ، لاكون شبيها بها الان . وعندئذ لا أجد في نفسي رغبة في الخروج ؛ لانني اكون قد أضعت الحياة .

ولما تقابلنا وجها لوجه ، لمحت في مآقيها علائم استسلام أبدي ، وعلى وجهها طفت نضارة عهد ضائع !

كانت تقترب مني بخطى بطيئة مترددة ، وشفتاها مثقلتان بتفتح رغبة حبيسة ... وعندما أخذتني بذراعيها ، دفنت رأسي بين ثدييها ، لأبدأ ، بطريقة مجهولة ، تاريخ مستقبل مظلم .

◆ ◆ ◆

طالت اقامتي في السجن . وقد منحتها باخلاص كل كياني هذه الفترة ؛ لانني كنت لا أستطيع المقاومة ، كما أنها أظهرت لي من الحنان ما أزال رغبتي في الاذية . ولكنني رغم ذلك ، كنت أقسو عليها أحيانا

بدافع من شراستي الطفولية .. دون أن أنسى عوالمي القديمة والحقول الوهمية لعالم الطفولة الواسع . وقد ظهرت آثار هذه الذكريات فيما بعد ، اذ كانت تعتريني فترات من الوجوم والحزن .. دونما سبب معروف !! وقد سألتني مرارا عن كآبتي المفاجئة ، فكنت اجيبها اجابات مبهمة ، وأحيانا أقول : لا شيء !! لكنها أدركت بفراسة الانثى انني غير راض عن اقامتي معها ، وان هناك شيئا ، لا تستطيع مهما بذلت من جهد ، أن تنتزعه من أعماقي أو تنسيني اياه . وهذا ما دفعها للتفاني في ارضائي ؛ لتحتفظ بي الى آخر خطوة في الدور .

كنت أغافلها أحيانا .. عندما تكون على ذراعي في خضوع مطلق ، وكانت هي الفترة الوحيدة التي ترمي فيها ظاهرها وتنزع آخر قناع يستر عريها المجهول . فأتجول في جوانب المنزل لاجلو الغموض الذي كان يسوده ، ولأهيء مسالك الهرب لما بعد ، خيفة أن أفاجأ وأنا أعزل من كل شيء !

كان منزلا عجيبا لم أشهد مثيلا له في حياتي قط . كان مغمورا بظلمة كثيفة في ظاهره المكشوف ، أما داخل البيت ، فكان شبيها بالغسق .. يترجح بين الظلمة والنور .

سألتها مرة ، لاختبرها فقط ، وكانت قوتي تنمو ببطء : انني أرى آثار أقدام كثيرة !!

تملصت بعنف من ذراعي .. ورمتني بنظرة عدائية مليئة بالدهشة ، وكأنها تستغرب مني السؤال ! ثم ما لبثت أن فتحت لي الباب ، قائلة بلهجة الواثق : اخرج اذا شئت .

ولاكسب الوقت ، بغية التفكير في ايجاد مخرج من الورطة التي أوقعني فيها التسرع • ولاخفف من حدة غضبها ، ولانفي التهمة ، قلت : لا أريد الخروج اليوم ، ولكنني أتساءل ما اذا كنا سنظل دائما في البيت ، أو ما اذا كنت أستطيع التجول وحيدا في أرجاء البيت •

قالت : كأنك سئمتني بسرعة !!

ـ لا ••• لم أفكر بهذا بعد •

قالت : لنخرج اذن سوية ، اذا كنت تحب الخروج •

أجفلت لدى الجواب !! فقد كنت أتوقع كل شيء منها الا أن تقترح علي الخروج ؛ لان الفارق الهائل بين عمرينا سيثير الشك والتساؤل ، ويدفع الناس للارتياب ! سيما وهي تلوح كالضحية •• وأنني المسؤول •

ولأنفي شبهة التخلص ، قلت : لكنني أراك متعبة •

قالت بصوت آمر : لنخرج سوية •

تتجمع قوى خفية • لذا أردت ان أختبر ذاتي هذه المرة • وفي سورة جهد ، كل صلاتنا الانسانية دون تردد أو خوف • )

شعوري بقوتي الوهمية ، تركت لها المنزل وخلفتها وحيدة •

وما ان خرجت من الباب ، حتى تقيأت سريعا كل الرواسب ، ورميت الاقنعة التي شوهتني فترة طويلة ••• دون أن أحسب حسابا لعودتي في يوم •

وعندما لفني العالم المجنون وأعمى الظلام عيني ، تيقنت أنني لا زلت غرا ، وأن خبرتي لم تكتمل بعد • لكنني تابعت طريقي •• مستعيدا ملامحي القديمة وكل أحلام الطفولة •

تعثرت في طريقي وواجهتني صعوبات جمة ، لكنني احتملت مصيري بألم وأنا أشعر بكبرياء غريبة تشمل كياني وتضعني في مستوى واحد مع العالم بأسره ؛ فقد أصبحت مسئولا أمام نفسي عن لوحة المصير .

ومرت علي في تشردي أيام طويلة ، أمضيتها في عزلة كئيبة ؛ لانني بدوت غريبا عن العالم الذي اعيش فيه . اذ كنت لا ازال احمل ـ بلا قصد ـ كل معالم السجن القديم . وعندما تقدمت اكثر ، كان التشرد قد استنفد قواي ، فشعرت بالفراغ والحرمان . عند ذلك أدركني الندم وعلمت أنني تسرعت . وقد خالجتني نية الرجوع ، لكنني تساءلت : أليست عودتي ايذانا بالتراجع ، واعترافا بأنني أخطأت ؟ ألا يعني أنني تخليت طوال ايامنا المقبلة عن كل حق في الاختيار ؟

كنت أخشى أن أستسلم اذا رجعت . وكان أكثر ما أخاف منه ، أن ترفض قبولي مهما فعلت . ولكن قدرتي على التلون واللعب .. ستنقذني حتما من السقوط ، وهذا ما كنت أثق به واعتمد عليه .

ولما رجعت اليها وجدتها في مكان الوداع ، وكانت تجلس في الحديقة قريبا من الباب ، وفي هيئتها اطمئنان أكيد يخالطه شيء من السهوم . كانت تعلم أنني سأعود وأنني لا أستطيع ، في هذه المرحلة على الاقل ، الاكتفاء بذاتي والانفصال عنها بشكل نهائي ، وهذا ما أشعرني بالذل والهوان .

مضت علينا بعدها اشهر طويلة ، وانا ابعثر أيامي في الضجر والفراغ . وخلال ذلك تبدلت في ذهني حدود الزمن ، وزال تعاقبه

المعروف .. فاختلط الحاضر بالماضي ، مع المستقبل المجهول !
آنذاك غفوت .

ثم وعيت العالم في طفرة مفاجئة ، فلم أعلم سوى أنني كبرت . ومع هذا فقد ترسبت في أعماقي فترة حزينة مليئة بالقرف والسأم ، وهي الصفة الوحيدة التي اكتسبتها خلال صحبتي للمرأة المجهولة .

. . .

وحتى ذلك الوقت ، لم أكن قد اطلعت على هويتها بعد . ولما فاجأتها بالامر ، رنت في أذني نظرة حقد غريبة ، وألقت ، لأول مرة منذ التشرد ، عن وجهها القناع .

عادت كومضة البرق كل أيامي الماضية ، وانبثقت أمام عيني صور الماضي القديم : الحدود المغلقة لحقول الطفولة الوهمية ، والجنائز التي شيعوا بها أمي ، والفضاء الذي عشت فيه ، وذلك العالم المسحور . ولكنني تجلدت أمامها ولم أظهر أي شيء .

كنت قد كبرت خلال فترة السجن ... بينما ظلت في مثل عمرها الذي رأيتها عليه !! كأنها لم تتبدل ، وأن الزمان لم يترك خطاه على الوجه . تيقنت حينئذ ، بعد أن اكتشفت حقيقتها ، أنني سأخسر المعركة فيما لو تجرأت وسألتها عن ماضيها ومستقبلنا المريب .

شددت القناع باحكام وتركت لوجهي فرصة التكيف مع الموقف الراهن ؛ ليرمي نهائيا ، وحتى اللحظة الاخيرة ، كل التعابير التي يمكن لها أن تطفو على صفحتيه . وقد برعت في دور التخفي بحيث لم تستطع هي أو غيرها ، حتى في ساعات الغضب ، ان تكتشف أو تلمح ،

على الاقل ، شيئا من اسارير وجهي الحقيقية أو مما يدور في النفس •
يا لها من ممثلة بليدة ، والنساء كلهن بليدات !!

لم تكن تعلم أنها تخدمني بذلك ، وتقودني ـ بلا قصد منهـا ـ الى طريق النجاح • لقد هيأت لي فرصة التغلب عليها واعطتني مجالا واسعا لاتمرن ـ بلا مسئولية ـ على أداء دور الصراع • وفعلا تمرست جيدا فيه ، اذ حينما دنت اللحظة الفاصلة ، قطعت بقسوة زائدة وبلا جهد ، كل صلاتنا الانسانية دون تردد أو خوف •

## ٤

كانت قد أرهقتني الذكريات •• وأرعبني اكتشافي الحاضر ، فارتميت من جديد على الاريكة وفي جسدي حزن وتعب قاتلان ، وفي عقلي دوار وحيرة تستعصي على الحل !! اذ حينما تمعنت في المرأة ••• التبس الامر علي وزايلني يقيني السابق ، ذلك الذي احسسته في لمعة الحدس •

تساءلت مجددا : أهذه هي المرأة التي رأيتها من قبل ؟ أيمكن أن يخطيء الحدس ؟

( مزقتني قوى عديدة ومتناقضة ، واعتراني شعور بفشل مرير : كنت أؤمن بالحدس وأبني كل سلوكي عليه ، لكن التسلسل المنطقي ،

وتأثير الزمن ـ وايماني بهما لا يتزعزع ـ يدخلان الشـــك في قلبي ويهدمان كل دعائم الحدس )

كنت مستلقيا على الاريكة انظر في ذهول الى لا شيء ... باحثا عن حل لمعضلتي الحاضرة ، والمرأة في زاوية من الغرفة ، تتأمل بقلق زائد صمتي الذي طال .

وخوفا من حدوث مفاجآت غير منتظرة ، واتقانا لدوري الذي ألعبه ، لم أطلعها على شيء من حالتي الراهنة ، بل اكتفيت بالصمت ، وأشعلت سيكارة ... وأنا أتابع دخانها بهدوء عجيب .

◆ ◆ ◆

كان الظلام يلتحم حولنا ببطء ، والاضواء تختفي واحدا بعد آخر ، والمرأة لا تزال في مكانها من الغرفة ، وفي حركاتها ما يدل على نفاد الصبر ، رغم أن وجهها كان مجللا بالظلمة .

تنبهت الى أن سيكارتي لم تنته بعد ، لذا كان وجهي هدفا سهلا لنظراتها الخفية . أطفأتها بسرعة وعدت من جديد للتأمل ...

كنت أفكر في طبيعة الدور الذي سألعبه ؛ اذ انني لعبت حتى الان عدة أدوار بسيطة ، دون أن يكون فيها ما ينبيء أنني وصلت الى الدور الذي تريدني من أجله . كانت تغمرني حيرة مستبدة ويمزقني خوف من المجهول ! اذ ما يدريني أنني سألعب الدور دون أن أعلم أنه المقصود ؟ لأنها قد هيأت لي الفرصة من قبل ، واختبرتني بأدوار كثيرة كثيرة دون

أن تشير الى الهدف الحقيقي من صحبتنا آنذاك .

لم أستطع أن أكتشف طبيعة الدور ، ولكني استنتجت ـ على ضوء التجارب السابقة ـ أنها تريدني أن أبدأ اللعب ، أن أقوم بالحركة الاولى .. بمهزلة الافتتاح ، لتقودني فيما بعد بطريقة خفية الى الدور الذي تريد . لأنها كانت تحب أن تبدو أمامي بدور الشهيد ؛ لتحتفظ بكبريائها وتفلت من المسئولية ، فيما لو دفعت من كياني وعمري ثمن الظهور على المسرح .

كانت ستهزأ مني وأخسر في نهاية النضال ، فيما لو استطاعت أن تغريني بالبدء !! اذ يستحيل علي التراجع أو الرفض ، ما دمت الباديء ... مهما قست بعد ذلك علي في الدور . اذ بين كل عاشقين يوجد غبي واحد ، هو الذي يعترف أولا بالحب !.. لأنه سيخسر مهما كانت المواهب التي لديه . وقد تأكدت من هذ «النتيجة في أيامي المقبلة ... مع احدى الفتيات . فقد بدأت الخطوة الاولى من العلاقة واعترفت لها بحبي في لحظة اندفاع أهوج ، فكان أن لعبت بي على هواها واستعبدتني أياما مديدة ، مرتكبا خلالها آلاف الحماقات .

كان علي اذن ، لأربح ، أن أحطم مقاومتها وأرغمها على رمي القناع ؛ لتبدأ الخطوة الاولى من الدور .

. . .

تخليت مؤقتا عن التفكير في طبيعة الدور .. حيث أخذ يفقد أهميته

في لحظتي الحاضرة • لأنني كنت واثقا من النجاح فيما لو جعلتها تبدأ ، أيا كانت طبيعة الدور • لذا عدت أفكر من جديد في الوسائل التي يمكن لها أن توصلني الى الهدف ، مستعرضا شتى الحلول •

كنت أعرف نقطة الحزن فيها ، وأعرف نقاط الحزن في النساء بصورة عامة ، لذا قررت أن ألعب معها دور البراءة المطلقة ••• أن أبدو أمامها بهيئتي الطفولية ؛ لتستعيد أمومتها •• وتلك نقطة الحزن في عواطفها •

كان قصدي الحقيقي من دور « الطفولة » أن أوقظ رغبتها الدفينة في استعادة أمومتها •• دور النساء الأزلي • ولكنني بالوقت ذاته ، كنت أريد أن أتيقن منها ••• ما اذا كانت هي التي عاشرتها من قبل •

كنت أعرف أيضا أن النساء فضوليات ، وأنهن يدفعن كثيرا لارواء فضولهن • لذلك قررت أن أخفي اهتمامي بها ، أن أتجاهل الغرض من صحبتنا على الاقل ؛ لارغمها على اظهار الحقيقة ، واستثير فضولها في اكتشاف طويتي الغامضة •

قلت لها : لنلعب • وضحكت بلا سبب •

قالت : عن شرط ؟

قلت ، وكأنني لا أكترث بالامر ، ودون أن أذكرها بأنني ضحكت سابقا من هذه الفكرة : عن شرط •

سألتني بلهفة : عن أي شيء ؟

ولأترك فرصة للهرب ، قلت : لا يهم • الفائز منا سيختار •

أجابت بصوت قاطع : انني أصر على التعيين .
قلت : الفائز منا سيختار زمان اللعب ويعين الادوار .

سألتني بدهشة : أي لعب ... وأية أدوار !!

وببراءة عجيبة ، ودون أن يبدو علي أنني تسرعت ، قلت : أية لعبة .. احدى لعب الاطفال !

وبعد تفكير وصمت طويلين ، قالت : انني أوافق .
ـ اذن لنلعب « الورق » .

وعندما بدأنا اللعب ، أعطيت وجهي بريق حماس مؤقت .. بهيئة من يحسب حسابا للنتائج . وما ان قضينا فترة قصيرة ، حتى خرجت ـ بتعمد غير ملحوظ ـ عن قواعد اللعبة ، وأخذت أرمي أوراقي بدون اهتمام ولا روية ، وكأنني فريسة حظ عاثر . وكنت قد غافلتها خلال توزيع الورق ، فوضعت لها ، قصدا ، كل « الشباب » . وعندما أخذت ترمي أوراقها ، شابا بعد آخر ... قلت لها بهيئة الاطفال: يبدو انك تحبين « الشباب » !!

قالت ، ودون تفكير : بل الشباب يأتون الي .
توقفت قليلا عن اللعب ، ورفعت عينيها لتخطف من وجهي نظرة سريعة ، ثم رمت بصرها الى الارض ليشملها شرود عميق .

كانت تحاول بلا ريب أن تحدس المعنى الخفي وراء اشارتي تلك . ويبدو أنها يئست ، أو رمت مؤقتا هذه الفكرة ؛ لان وجهي كان بلا منفذ ! لذا رأيتها تستعيد هيئتها السابقة لتستأنف اللعب من

جديد • لكنني بالوقت ذاته ، قذفت أوراقي بتأفف ونزق طفوليين ، مبديا رغبتي في عدم متابعة اللعب •

سألتني باستغراب : ألن تتابع ؟!

ولكي لا أعطيها جوابا تستشف شيئا منه ، تجاهلت سؤالها وارتميت في حضنها بوداعة •••

بدت على عينيها غيوم ارتياب حذر •• وارتسمت على صفحتيها ظلال من الدهشة والحيرة والخوف ! لقد باغتها بسرعة وعطلت لديها كل تفكير منظم ، فوضعتها بحركتي المفاجئة في موقف الاختيار • كان عليها أن تختار •• أن تحدد مصيرها لما بعد وتقوم بالخطوة الاولى من الدور ، كرد طبيعي على حركتي المفاجئة ، وهذا ما كنت اريده واسعى اليه •

لم يكن باستطاعتها أن تتردد ؟ اذ أن أي تردد يعتريها يعرض مقدرتها للشك ، ويضعها أمامي في موقف الخائب •

كانت تستطيع أن تتجاهل وضعها الحاضر •• وتحذف نهائيا موقف « الاختيار » فتخطو بغباء مصطنع خطوة لا تمت بأية صلة لأهدافها الحقيقية • وهذا ما كنت أفعله لو رمتني في مثل وضعها الان • لكنها كانت من الغباء ـ والنساء عموما غبيات ـ بحيث أسفرت عن وجهها وأظهرت بلا حيطة رغبتها الدفينة التي حاولتني من أجلها أياما طويلة •

أخذت تعبث بشعري وتربت على خدي بنعومة ••!! احسست

بالقرف يمتليء به صدري • كدت أتقيأ فعلا من وجهها المغضن ويديها الضامرتين •

كانت هوة عمرينا هي المانع الحقيقي من اشتراكي باخلاص في التجربة ، والاندماج بلا قرف في الدور • وهذا ما كان يدفعني لابقاء القناع في لحظة الاستراحة ، وحتى بعد الانتهاء من التمثيل • لكنني ، متابعة للطريق الذي توغلت فيه ، حبست ما في نفسي وأظهرت أنني نائم ، بطريقة طفل مدلل •

تيقنت ، من ملامسة خديها ، ودموعها التي بللت وجهي ، أنها سيت أننا على المسرح ، وأنها تلعب الان بلا تكلف ولا أقنعة ، دور الأم الطبيعي •

( كان يمزقني في هذه اللحظة ، تأثرا باخلاصها المطلق ، شعور قوي بالوضاعة •• ويثقلني ندم حزين • وقد أوشكت مرارا ، بضغط الشفقة التي اعترتني ، أن أمنحها ذاتي باخلاص مماثل ، أو أطلعها على الرباط الحقيقي من علاقاتنا المشتركة •

كنت أشفق عليها بكل كياني وأود من أعماقي لو أنني ما خدعتها من البدء • وكانت هذه نيتي أول الامر ، بحيث أوشكت مرارا ، لولا أن أتراجع بسرعة ، أن أسقط القناع وأبدو بلا أصباغ • لكنني تذكرت ـ بلا رغبة في التذكر ـ أننا على المسرح ، وأن المتفرجين يرقبون المشاهد ، وينتظرون ولو هفوة بسيطة ، ليسخروا مني ويضحكوا علنا من عرينا المفضوح •

كنت مرغما على الاحتفاظ بهيئتي حتى انغلاق الستائر ، وكنت

أحب لو أنها تفعل ذلك . لكنها تنسى ، بالظمأ الدفين ، ودون تبصر بالعواقب ، فوارق الأزل بين عمرينا ... وتسفر عن عري أنا كنت أخجل منه ) .

تركت لها ذاتي بلا مقاومة ! كنت أريد أن ألعب دور المحايد ؛ لأثبت لها في أيامنا المقبلة ، أنني كنت ضحية براءتي الوهمية ، وحرمانها المجنون ...

( كنت أعلم أنني سأضيع في المستقبل ، على صعيد واحد ، كل الفوارق التي بيننا .. أضعها مع النتائج النهائية ، والمحتملة ، لايامي الحاضرة . وكانت النتائج المحتملة ، لا النهائية ، هي التي تستعصي على الحدس ، وتملؤني قلقا وخوفا غير محدود . لكن الحاصل سيكون صفرا على الدوام ، فيما لو تركتها تحتل دور الشهيد .. وهذا ما كانت تحرص على القيام به منذ بدء العلاقة ) .

تركتني بفتور من ذراعيها ، وأخذت تتأملني !! لانها لم تتوقع أن أقابلها بذلك الهدوء المطلق والحياد التام . ولما لم تجد في هيئتي أية رغبة في البدء ، فقد عادت تضمني من جديد ، بادئة بأول خطوة من مصيرها المحتوم .. وقد تخلت بلا تردد عن دور الشهيد .

لفحتني أنفاسها المحرقة ... فشعرت برعشة مؤلمة في جسدي . كانت تلاعبني بطريقة مكشوفة ، وتضغط باستمرار علي . كانت تريد أن تضعني فورا بدور « الرجل » لتختبر عفوية براءتي . لكنني ظللت على حيادي كأني غير مقصود بهذه الملاعبة .

ساورتني رغبة خبيثة : أن أمهلها الى اليأس مني .. الى أن تطفو على وجهها الخيبة ، وتعترف بطريقة غير مباشرة ، أنني استعصيت على خبرتها وصمدت لاغرائها الفاشل ، وحينئذ ألعب دور « الرجل » لتدرك بعد فوات الوقت ، أنها كانت ألعوبة بليدة امام طفولتي الوهمية .

كانت هذه رغبتي الأصيلة حينذاك ، وكنت عازما أن أسير بها الى النهاية ، لأثبت لها أنني كنت عارفا منذ زمان اللقاء ، بماضيها وأحلامنا الحمقاء . لكنني شعرت ازاء ضغطها المتزايد وعريها المكشوف .. بتفتح ساخن في أعماق جسدي وبمقاومتي تنهار . ثم رانت غيوم كثيفة علي ... وامتلأت عيناي بالنجوم !..

وعندما دنوت منها ، لتلعب ، بلا مستقبل ، مهزلة « الغياب » .. كان الألم يزرع الدموع في عينيها ويرسم على صفحتيها ظلال ندم عميق .

أصبحت مهددا وخائفا هذه اللحظة ! كنت أخاف أن تتراجع .. أن تستعيد ماضيها وتخلص من الوهم ، وحينئذ ستدرك حقيقتها وتفلت من يدي . وعندما لمحت فيها نية التراجع ، أغلقت في وجهها الطريق ، وقررت أن ألعب ـ مهما كانت النتائج ـ وبلا شفقة ، دور القسوة المطلقة .

بصقت بعنف براءتي الوهمية ، ودخلت فورا دور « الرجل » ... متخطيا بطفرة جسورة عنادي السابق وهاوية الزمان ، وكل فواصل الجسد بين عمرينا !!

... ... ...

شعرت بخدر ثقيل يتغلغل في لحمي وينهك رئتي ... وبالهواء

تملؤه عطور مسكرة • كنت أزلق الى عالم الغيبوبة ، وأجتاز تجربة موت مؤقت •

وعندما أخذت تلفني الظلمة ، ويقتلني الهدوء •• وجـــدتني أستعيد طفولتي القديمة : أمي التي ماتت ، والحقول الواسعة ، وظلالا باهتة للمرأة التي رأيتها ذلك الحين •

كانت الفرصة مهيأة لي لأقارن بين المرأتين ، وأكتشف ما اذا كانت هي امرأة الطفولة • وعندما تعمدت أن أستعيد الذكريات القديمة وأتعرف على صورها المنسية ، أخذت تختفي رويدا هذه الاشباح •

كان العدم يطوي كل شيء !!

وعندما سادت الظلمة ••• كان المطـر يتساقط على الارض ، والجمر يتوهج في المدفأة ، وأنا أغيب عن الوعي •• وأتمزق بخجل مر !•

كنت أدخل نهائيا مهزلة « الغياب » •••

## ٥

فتحت وجهي على فراغ مبهم • كانت العتمة تحجب كل شيء حوالي • كنت بلا جسد ، وكان العالم يهبط الى اسفل ، وينزلق الى هاوية بلا قرار •

مضت علي فترة طويلة ، وأنا غائب عن الوعي • وعندما لامس النور عيني ، وجدتني ملقى ، وحيدا ، على الارض !

كانت التجربة ثقيلة على عمري ، فخرجت منهـــا بوعي منهك ، وبجسد يضج شوقا الى مزيد من التجارب • كنت على يقين بأنني فتحت الطريق أمام جسدي وخطوت أول خطوة في تاريخه المظلم • أدركت

أنه لا مجال للتراجع بعد اليوم ، وأنني سأمضي حتى أعماق التجربة الجسدية !.. ذلك أنني تفتحت بين ذراعيها ، لتقطف مني بكر التجارب ... ولأحتفظ بهذا التفتح حتى أواخر الدور .

تطلعت ، حذرا ، حوالي ... كنت مكشوفا أمام ذاتي ، بلا تنكر ولا أصباغ . كنت عاريا من كل شيء !! حتى براءتي الوهمية .. كنت عاريا منها حينذاك .

أرعبتني شراستي الوحشية ، وتمزقت حجب النسيان ! كانت مخالبي ملطخة بالدم ، وآلاف الجثث على يدي .. وأنا أعدو بلا تراجع في حقول واسعة من صيف العالم المجنون .

تيقنت بعد أن علمت ماضي ، أنني سأتغلب عليها وأذلها حتى نهاية العمر ، وأنها لن تستطيع حتى لو استردت شبابها ، أن ترغمني على خيانة ذاتي وابقائي في قيودها الذهبية ، أو الخضوع لسلطانها الجسدي .

غادرت مكاني ونفسي مثقلة بحقد دفعني فيما بعد ، للتخلي عن شفقتي وهجرها في زمن هي أحوج ما تكون فيه الي ! اذ حينما بدأت تسترد أمومتها وأحيي قلبها الجدب ، رميتها بحقدي وبكل ما اختزنته من قرف جسدي . وعندما أصرت على الاستمرار في الدور ، فاجأتها بما لم أصرح به خلال أيامنا المشتركة ... فكشفت لها بوضوح زائد عن حقيقة الدور الذي لعبته طوال ذاك الزمان ، وعن شعوري خلال مهزلة الغياب .

. . .

قضيت بعدها أياما وساعات كثيرة ، في تشرد كان يلقيني بكسل

بليد على جوانب الحياة ، وقد خمد كل اهتمامي بأيامي الحاضرة .. حتى أنني تركتها لمستقبلي دون تحديد .

كنت أعيش بين عالمين مختلفين .. عالم الواقع والخيال . وكنت في خيالي أمضغ أحلامنا الميتة ، وأستعيد صور اللقاء . وكانت تمر بي الليالي في واقعي الجدب ، وأنا أنتظر عودتها وأتساءل كيف أنها فارقتني دون أن أراها أو تحدد مصيرنا لما بعد . وقد أدركت آنذاك بحدس عريزي أنها تريد أن تقصيني مؤقتا عن مسرح التجارب ؛ لتختبر مدى قدرتي على الصبر ، أو لترغمني على البحث عنها ، لتكون على يقين من خضوعي لها واغرائها علي . ولما لم أجد في نفسي أية رغبة للبحث ؛ فقد استسلمت للحقد الذي كان يتخثر في كياني ويفصلني رويدا عن العالم . ولكن التناقض كان يمزقني لأبعد الحدود ؛ لأن جسدي كان في شوق الى مهزلة الغياب .

كنت في صراع بين جسدي وفكري ، وكنت أريد أن أحطم الفكر ؛ لأعطي جسدي كل مجاله الغريزي !.. فقد كان في سورة التمرد وعنفوان الشباب . ولكن تمردي كان سيهدم كل ما بنيته ويجعلني خاضعا الى النهاية . كنت أفكر في هجرها لأستعيد أيام الطفولة ، ولكن رغبتي في اكتشاف ماضيها وأن أعرف ما اذا كانت هي التي رأيتها من قبل ، تدفعني بضغط لا يقاوم لأستمر في دور العبودية والهيام .

تركت لها أيامي وكل أحلام الطفولة ، وأخذت أبحث عنها بلهفة فارغة ، وعلى وجهي علائم حزن أجوف . وقد بحثت عنها في طرق كثيرة .. في ألف درب ودرب ! حتى اذا التقينا ، كان قد استبد بي اليأس ، وانهكتني الدروب .

حاولت أن أخدعها في البداية ... أن أتصنع أمامها الحب !! لكنني ، عندما رأيت خديها الضامرين ، شعرت بغصة توقف الكلام في صدري ، وبعيني دافقتين بالدمع . كانت شفقتي عليها حقيقية هذه المرة ، وكنت أبكي من الاعماق .

وعندما اقتربت منها ، لمست فيها رغم مظاهر الحزن والشوق ، ظلالا من القسوة والحذر والحقد .

كان مستقبلي هذه اللحظة ، يتوقف على اطمئنانها الي . وقد لاح لي أنها تريد أن تدخلني في صراع فاصل ، وجها لوجه . ولكن الوقت لم يحن بعد ، كما أنني بطبعي كنت أكره كل شيء علني . لذا ابتسمت لها بمرارة دلالة الخطيئة واليأس ، وتركت جسدي يقوم بدوره المعتاد !!

( جازت الخدعة ، ما أغبى النساء )

كنا ظامئين ... وكان شبابي ، ورغبتها في تجاهل الزمان ، يهيئان أنا الفرصة ، لأحتفظ بحقدي دون أن أسفر عنه ، ولتنسى نهائيا غرورها الموروث .

وعندما احتضنتها بذراعي ، أحسست أن كل عواطفها كانت تتركز على شفتيها الجائعتين !

( أي حرمان كانت تعيش فيه !! )

. . .

لا أدري كم ظللت غائبا عن الوعي ! فقد كان علي ، تخلصا من القلق ، أن أحذف من فكري خيال الزمن : ماضينا والمستقبل المجنون .

ولكن عندما استفقت ، وجدتها بجانبي هذه المرة ، وفي هيئتها علائم نصر مؤكد !!

كنت مستلقيابلا رغبة ، والفراغ يتخثر في أعماقي ، وخدر مبهم يشل ارادتي ويميت كل تفكير لدي • لذلك كنت أظل مسترخيا •• وأعاود النوم من جديد •

لم يكن في حالتي الحاضرة ما ينبيء عن هزيمة ، أو يعطيها الحق في الضحك • ولكن عندما تمعنت أكثر ، تبينت أنها كانت صائبة !! فقد كانت من الدهاء بحيث استسلمت الي • وكنت طائشا بحيث خدعت ، لأصبح تابعا لها طوال الوقت • وهكذا وقع ما كنت أخافه وأخشاه •

كانوا يرفعون الستائر ، والاضواء تشعل واحدا بعد آخر •• فبدوت عاريا على الارض ؛ كنت أمثل الدور الذي تريد ، دون أن أعلم أنني بدأت اللعب ، أو أنه المقصود •

أخذ اليأس يتسرب الى قلبي ، لذا وددت مغادرة المسرح قبل فوات الوقت • لكن هيئتها كانت تدل على أنها ستمنعني من الخروج • وعندما أردت أن أحاول ، رأيتها تضحك بسخرية بالغة ، وبشيء من الغرور •

سكت مرغما على الاهانة ؛ لأنني كنت محتاجا لها هذه الفترة •• محتاجا الى جسدها والى المال الذي تنفقه بطريقة جنونية علي • كنت أريد لجسدي الذي شرع يتفتح على الحياة ، أن يعب منها حتى آخر نبضة فيه ؛ لينضج ، ولأكتشف بطريقة غير مباشرة ، كنه الفوارق بين عمرينا ، وكانت بدورها تقدم لي كل شيء أريده ، وترضي أبسط نزوة في ، حتى ولو رغبتي في الحزن •

لم أحص وقتها شيئا من الايام ، ولكنني أذكر أنني مكثت طويلا على المسرح !.. فقد كانت فكرة الزمن ترعبنا سوية ، وتدفعنا لنسيانها بتفاهم مشترك :

كنت أخاف أن يطول بي العمر ، فأندمج نهائيا مع الوضع وألعب باخلاص عبودية الدور • حتى اذا وصلت آخر مشهد فيه ، لم أجد في أية ارادة للتحرر أو الخلاص • وكانت تخاف بدورها أن يسقط القناع فجأة ، وتنهار تحت عبء السنين ، وحينئذ لا مفر لها من مواجهة الحقيقة ، حيث تقضي بقية العمر في يأس ، وتغدو المتابعة في عداد المستحيل •

توالت بعد ذلك الساعات ، وأنا لا أزال على المسرح • وكنت أمارس اللعب في حماس باديء الامر ، ولكن كلما تقدمت أكثر ، كانت رغبتي تخبو مع الايام ، بينما كانت رغبتها ـ رغم تقدم العمر ـ تشتعل من جديد • لذا كانت تتعجل الدور وتلعب بجنون ولوعة •

حسبت أن النهاية قد دنت ، وأن آخر مشهد في المهزلة على وشك الوقوع • ولما عزمت على اختبار الامر ، تبين لي أنني أخطأت في ظني ، وكانت أول مرة أشعر بالعجز •

قضينا بعد ذلك أياما مملة ، كنت أقوم فيها ، دون حاجة ، بدوري المعتاد • ويبدو أنها أدركت بخبرتها الجسدية أن « المعادلة » خاسرة ، وأن أحد طرفيها كان يتجه للزوال !! لذلك شرعت تقسو علي ،وترغمني على المتابعة ، وأن أبيع لها ذاتي بلا مقابل ... حتى جاءني زمن سئمت فيه كل شيء •

كنت سجين أغلالي الداخلية ، وكانت على يقين بأنني لا أستطيع الفرار ولا أرغب فيه !! لأن جسدي كان قد تلاشى في صحرائها الجديب ، ومات في روحي النضال .

كنت سجينا بلا قيود على المسرح ، وكانت خاتمة الدور لم تتضح بعد ! كنت مدفوعا الى العبودية ، وكانت الخمر طريقي الى النسيان .

سقطت بلا محيص الى أعماق الهاوية ، وأنشبت في لحمي أظافرها الخمر . كنت أعلم أنها تقتلني رويدا وتجرني الى هلاك محتوم . ولكن ماذا كنت أستطيع أن أفعل ، وفراغي الروحي ، والظمأ الجسدي ، كانا يدفعاني الى الانحدار ؟ وقد شربت منها أكثر من المألوف ، حتى صرت في حالة غياب مستمر عن الوعي . كان العـــالم يتراخى أمام عيني ، والاشياء تفقد ثباتها الاصيل .

كنت أنسى وضعنا الحاضر ، وأحذف كل ماضينا وأحلام المستقبل المجهـول . لذلك اختفى التباين بين عمرينـا ... وزالت الفوارق الجسدية !! كانت تسترد أمومتها ، وكنت أعود طفلا من جديد .

تخلينا عن الحذر هذه الفترة ، ورمينا كل خوف وريبة ؛ فقـد انهكتنا التجارب الماضية وأترعت قلبينا بحقد هائل . لذلك انتهزنا فرصة الاستراحة وغياب المتفرجين ، لنلعب ، بلا رغبة في اللعب ، دور التعري .. والكسل والهدوء .

. . .

لأول مرة كنا عاريين !!

وقد وجدت الفرصة ملائمة ، فصرت أشرب بلا انقطاع . وكنت

خلال ذلك أستعيد كل تجاربي وماضي ؛ لأتيقن قبل الخطوة الأخيرة ما اذا كانت هي التي رأيتها من قبل • ذلك أنني عزمت بلا تردد ، ومهما كانت النتائج ، على استرداد طفولتي وانهاء الدور •

كنت أنتظر منها لحظة غياب مفاجيء ، لأكتشف ما احتملتها من أجله طوال أشهر عديدة • وعندما وقع ما انتظرته ، واطمأنت نهائيا الي ••• حدثتها بما ترسب في وعيي عن طفولتي الماضية : عن الحقول الواسعة ، والحشرات الصغيرة التي كانت بلا أجنحة ، والعفاريت التي كانت تبرز لي من الظلمة ، والجنازات ••• وصيف العالم الواسع المجنون !!

وعندما رأيتها تنظر باهتمام الي ، علمت أنني كنت صائبا في الحدس !

حدثتها بعد ذاك عن المرأة التي التقيت بها ، وعن سفرنا ذلك الوقت •• وكيف أنها كانت تشبهها الى حد بعيد •

وضحكت آنذاك !!

سألتني عن الضحك !!••

قلت : لقد رأيت مع المرأة صورة أحد الاطفال •

سألتني مجددا ، بدهشة وبعنف : ما الذي يضحك في الامر ؟!

قلت : لقد كانت صورة الطفل تشبهني الى حد بعيد !!••

تطلعت فيها ••• كان وجهها هادئا كالموت ، وفي عينيها جمود غريب !

عند ذلك جزعت !!!

تراني كنت مخطئا في الحدس ؟ أيتهدم بلحظة كل ما بنيته خلال هذا الزمان الطويل ؟

( شعرت بالضجيج يمتليء به رأسي ، وبالعالم ينهار تحت قدمي )

كانت تطل بوادر المأساة ، وصورة الفاجعة ترتسم في لوحة المصير .

كنت أحتفظ بآخر سهم لدي ، بما لم أجرؤ على التلويح به في أحلك الساعات . كانت هذه فرصتي الوحيدة ، سأغامر ... والا ضاع ، سدى ، كل شيء !!

رميت بعنف براءتي الوهمية ، وتركت لغرائزي فرصة الظهور .. فامتلأ وجهي بالقسوة ، وبكل ما اختزنته من قرف وحقد .

دنوت منها بثبات وجرأة ... ومزقت لها القناع .

وبصوت هادىء ، بلهجة الواثق ... ذكرتها بهاوية الزمان ، وفواصل الجسد بين عمرينا ...

... ... ...

تلون وجهها بالشحوب ، وحاولت أن تضحك باديء الامر . لكن خانها التجلد ، فانهارت الاقنعة وساحت الاصباغ ، وبدت عارية أمام عيني .. فاكتشفت الحقيقة وعرفت طبيعة الدور .

كانت هي التي رأيتها أيام الطفولة ، وكانت تريد أن تحيي شبابها وتسترد أمومتها علي .

## ٦

كان كل شيء يؤذن بانتهاء الدور ! فالاضواء أخذت تطفأ بطريقة غامضة ، كأنما كانت تطفئها قوى خفية . وبـــدأ المتفرجون يغادرون المسرح ، والأقنعة تتساقط واحدا بعد آخر ... لتفسح المجال للوجه كي يأخذ شكل تعابيره الحقيقية .

وقفت ألقي عليها نظرة الوداع ...

كانت مكومة على المسرح ، منهكة يائسة . وكان الزمن قد ترك آثاره جلية عميقة ... فامتلأ وجهها بالاخاديد ، وانطفأ بريق عينيها .. ومات في روحها النضال .

. . .

كانت الستائر تغلق رويدا ، والظلام يعم المكان . وعندما اختفى المتفرجون وأطفئت الأنوار ، كان قد انتهى كل شيء .

. . .

كان الدور ناجحا على العموم ؛ فقد اختزنت في هذه الفترة كثيرا من التجارب ، بحيث لعبت فيما بعد ... كل دور بلا قناع .

# الفهرس


ص ٥ الاهداء

ص ٧ المتفرج

ص ١٧ العالم المسحور

ص ٣٣ لقد تاخرت

ص ٤٤ الانسان والعالم

ص ٦٢ الصفير الممزق

ص ٧١ الجلاد

ص ٨٦ ع تابع ل س

ص ٩٩ على المسرح

الغلاف بريشة ادهم اسماعيل
الخطوط بريشة محمد قنوع

الطبعة الاولى ١٩٦٢
جميع الحقوق محفوظة

دار الشرق للنشر والتوزيع
ص.ب ٢٣٨٢ - دمشق

الثمن : ٢ ل.س .

LIBRARY
OF
PRINCETON UNIVERSITY

Princeton University Library
32101 072542275